

الفصل الرابع

الدين والفلسفة

١ - الموقف الدينى

كان لقصة القرن الثامن عشر فى غرب أوروبا موضوع ذو شقين ، انهيار النظام الاقطاعى القديم ، والانهيار الوشيك للدين المسيحى الذى أضفى على ذلك النظام سنده الروحى والاجتماعى . فقد كانت الدولة والدين مرتبطين برباط المعونة المتبادلة ، وبدا أن سقوط الواحد يجر الآخر الى مأساة مشتركة .

وقد لعبت انجلترا الفصل الأول فى كلتا ناحيتى هذا التغيير العظيم . ففى المسرح السياسى سبقت حربها الأهلية (١٦٤٢ - ٤٩) الثورة الفرنسية بمائة وسبعة وأربعين عاما فى خلع أرستقراطية اقطاعية وضرب عنق ملك . أما فى مجال الدين فان نقد الربوبيين للمسيحية سبق الحملة الفولتيرية فى فرنسا بنصف قرن ، وسبقت مادية هوبز مادية لامترى بقرن ، وسبقت رسالة هيوم « فى الطبيعة البشرية » (١٧٣٩) ومقاله « فى المعجزات » (١٧٤٨) هجوم « الفلاسفة » الفرنسيين على المسيحية فى « الموسوعة » (١٧٥١) . وكان فولتير قد تعلم شكوكيته فى فرنسا - وبعضها أخذه عن بولنبروك الانجليزى المبعد عن وطنه - قبل أن يحضر الى انجلترا ولكن السنوات الثلاث التى قضاها فى انجلترا (١٧٢٦ - ٢٨) روعته بمشهد السنية وقد أصابها الانحلال والكاثوليكية وقد ذلت ، والبروتستنتية وقد تفرقت شيعا مستضعفة ، والربوبيين يتحدون كل شيء فى المسيحية الا الايمان بالله - وهو بالضبط التحدى الذى سيحمله فولتير الى فرنسا . يقول فولتير « فى فرنسا ينظر الناس الى على أننى مقلد فى الدين ، وفى انجلترا على أننى مسرف فيه (١) » .

وقد كتب مونتسكيو بعد أن زار انجلترا فى ١٧٣١ يقول « ليس

فى انجلترا دين (٢) « . وهذا بالطبع تدريب على المبالغة اللافتة للأنظار ، لأنه فى تلك الفترة بعينها كان جون وتشارلز وسلى يؤسسان الحركة الميثودية فى اكسفورد . ولكن مونتسكيو ، وهو رجل ارستقراطى ، تنقل أكثر ما تنقل بين أقطاب النبالة أو العلم ، وهو يخبرنا أنه فى هذه الجماعات « اذا ذكر الدين ضحك الجميع (٣) » . وهذا أيضا يبدو غلوا فى القول ؛ ولكن لنستمع الى اللورد هرفى ، الذى كان يعرف تقريبا كل رجل وامرأة ومنحرف بين عليية القوم :

« ان خرافة المسيحية هذه . . . قد نسفت الآن (١٧١٨) فى انجلترا ، حتى ليكاد أى رجل عصرى أو ذى مكانة يخجل من الاعتراف بمسيحيته خجله فى الماضي من الجهر بتجرده من أى دين . وحتى النساء اللائى كن يفخرن بذكائهن حرصن على أن يفهمن الناس أن الميثودى المسيحية هى ما يحتقرن الالتزام به (٤) » .

فى تلك الطبقات أو العقول الرفيعة كان الدين يعنى اما نعاس صلاة القديس الانجليكانى أو « حماسة » المذاهب المنشقة ، وعمما قليل سيعرف الدكتور جونسن الحماسة بأنها « ايمان مغرور بالالهام الخاص » - وبالمعنى الحرفى « اله فى باطن الانسان » . وكانت الكنيسة الرسمية قد فقدت كرامتها ونفوذها بمساندتها الاستيوارتيين ضد الهانوفريين وحزب الأحرار المنتصر ؛ وخضعت الآن للدولة ، وغدا تساوستها أتباعا أذلاء للطبقة الحاكمة . وكان القسيس الريفى هو الهدف المفضل لهجو الأدباء أو سخرية السوقة ، وقد كرم فيلدنج من شذوا عن هذه القاعدة فى شخص القس آدمز . وغلبت الفوارق الطبقيية فى الكنائس ، فكان للأغنياء مقاعد خاصة قرب المنبر ، وجلس عامة الناس أو وقفوا فى المؤخرة ، فاذا قضيت الصلاة لزم العامة أماكنهم ريثما يخرج صف الكبراء فى وقار بطىء (٥) . وفى بعض كنائس لندن ، حين يكثُر عدد الفقراء القادمين للعبادة ، كان المصلون من أصحاب البواريك يهربون بعد أن يقفلوا مقاعدهم خلفهم (٦) ، ملتهمسين هواء أكثر نقاء .

وكان بعض الاساقفة الانجليكان أمثال بطرر ، وباركلى ، ووربرتون ، رجالا متبحرين فى العلم ؛ وكان اثنان من هؤلاء على خلق عظيم ، ولكن

أكثر كبار الأكليروس كانوا فى مناوراتهم للترقى يشاركون فى لعبة السياسة شكاك البلاط ومحظياته ، ويفنون فى حياة الترف دخول كثير من الأبرشيات . وقد روى أن الأسقف تشاندلر دفع ٩٠٠٠ جنيه لترقيته من لتشفيلد الى درم ، أما ويليز أسقف ونشستر ، وبوتر رئيس أساقفة كذتريرى ، وجبسن وشرلوك أسقفا لندن ، هؤلاء جميعا ماتوا « أغنياء غنى مخزيا » وبلغت ثروة بعضهم ١٠٠٠٠٠ جنيه (٧) . ولم يكن شكرى يطيقهم ، فقال :

« قرأت أن الليدى يارموث (خلية جورج الثانى) باعت أسقفية لكاهن بمبلغ ٠٠٠ره جنيه ٠٠٠ . أكان هو الحبر الوحيد فى عصره الذى قادته أيد كهذه الى المحراب ؟ اننى اذ اختلس النظر الى داخل قصر سانت جيمس الذى يقطنه جورج الثانى ، أرى الثياب الكهنوتية الكثيرة تحدث حفيفا وهى تصعد السلم الخلفى لسيدات البلاط ؛ قساوسة متسترين يدسون أكياس النقود فى حجورهن ، وذلك الملك العجوز الفاجر يتثائب تحت مظلته فى المصلى الملكى أثناء عظة القسيس ، الواقف أمامه ، (أو) يثرثر بالألمانية . . . بصوت يبلغ من علوه أن القسيس . . . انفجر صارخا فى منبره لأن حامى الايمان وموزع الأسقفيات لا يريد الاصغاء اليه ! (٨) » .

وكان من سمات العصر أن الكنيسة الرسمية أصبحت شديدة التسامح مع عقائد أعضائها وطقوسهم المختلفة . وقد وصفها بت بأنها « عقيدة كلفنية ، وطقوس بابوية ، وأكليروس أرمنيوسى (٩) » أى أن العقيدة الرسمية كانت جبرية ، والطقوس شبيهة بطقوس روما الكاثوليكية ، ولكن روحا متحررة سمحت للقساوسة الأنجليكان برفض حتمية كلفن واعتناق تعليم المهرطق الهولندى أرمنيوس القائل بحرية الإرادة . لقد ازداد التسامح لأن الايمان اضمحل ، وآية ذلك أن هرطقات كهرطقة هيوم ، كانت تروع انجلترا القرن السابع عشر لو جهر بها انسان ، لم تحدث غير موجة طفيفة على نهر الفكر البريطانى . وقد وصف هيوم نفسه انجلترا بأنها « استكانت الى حال من عدم الاكتراث الهادىء بأمور الدين لا تجدها فى أى أمة أخرى من أمم الأرض (١٠) » .

وكان كل الانجليز ملزمين بالعبادة الانجليكانية حسب نص القانون . فكل متخلف عن صلوات الاحد عرضة لتغريمه شلنا عن كل تهرب ، وكل من يسمح لهذا المتخلف بمساكنته يعاقب بغرامة عشرين جنيها في الشهر (١١) ؛ على ن هذه القوانين ندر أن طبقت . وكانت العبادة الكاثوليكية محرمة ، قانونا أيضا لا تطبيقا . فالقس الكاثوليكي الذي يؤدي وظيفة كهنوتية عقابه الحبس المؤبد . ومثل هذه العقوبة فرضت لثنى أى كاثوليكي عن فتح مدرسة ؛ وحرم على الوالدين ارسال أبنائهم الى الخارج ليتعلموا تعليما كاثوليكيا والا غرموا ١٠٠ جنيه . ولا يحق شراء الأرض أو ورثها الا للمواطنين الذين أقسموا يمينى الولاء والسيادة (اللتين تعترفان بملك انجلترا رأسا للكنيسة) وقرروا رفضهم لعقيدة التحول . وكل كاثوليكي يرفض أداء هاتين اليمينين يحرم من المناصب المدنية أو العسكرية ، ومن ممارسة المحاماة ، ومن اقامة أى دعوى أمام القضاء ، ومن العيش فى نطاق عشرة أميال من لندن ؛ يضاف الى هذا أن هذا الكاثوليكي يجوز فى أى وقت نفيه من انجلترا والحكم عليه بالاعدام اذا عاد اليها . على ان الذى حدث فعلا أيام جورج الأول والثانى هو أن الكاثوليك كانوا يورثون ثروتهم وعقيدتهم بانتظام لابنائهم ، ويستطيعون الاستماع الى القداس فى كنائسهم الصغيرة وبيوتهم دون معوق ، وأن الكثيرين منهم أدوا اليمينين المطلوبتين مع تحفظ بينهم وبين أنفسهم (١٢) .

وكان كل البروتستانت الانجليز الغيورين الآن يتبعون المذاهب المنشقة على الكنيسة الرسمية . وقد ضحك فولتير واغتبط لكثرة عددهم : مستقلون (بيورتان) ، ومشيخيون ، ومعمدانيون ، ومجمعيون ، وكويكريون ، وتوحيديون . فاما المشيخيون (البرزيتيريون) فكانوا فى طريقهم الى التسامح بعد أن فقدوا سلطتهم السياسية ، ولم يأخذوا عقيدة الجبر مأخذ الجد الشديد ، وكان كثير منهم قانعاً فى صمت بمسيح بشرى (١٣) . وفى ١٧١٩ قرر مجمع للقساوسة المشيخين بأغلبية ٧٧ الى ٦٩ أن التعهد بالتزام عقيدة الثالوث التقليدية ينبغى الا يكون شرطاً يفرض على المرشحين رعاة للكنيسة (١٤) . وأما الكويكريون فكانوا فى نمو لا فى العدد بل فى الثراء ، وكلما ارتقوا فى مدارج المجتمع أصبحوا أكثر تقبلا لاساليب حياة البشر وذنوبهم . على أن ميلا الى الاكتئاب

أصاب كل المنشقين تقريبا حتى وهم ينعمون بالثراء ، وبينما كانت طبقات المجتمع العليا تجعل من يوم الاحد يوم جذل كانت الطبقة الوسيطة الدنيا - حيث يتكاثر المنشقون - تواصل « الأحد العبوس » الذي ورثته عن البيورتان . فى ذلك اليوم كانت الأسرة عقب صلوات الصباح فى البيت تمضي الى قاعة الاجتماع لحضور خدمة دينية تمتد ساعتين ، فاذا عادت الى البيت قرأ الأب الكتاب المقدس أو الكتب التقوية على زوجته وأبنائه الذين قد يجلسون على وسائد فوق أرض عطلت من الأبسطة . وكانوا عادة يذهبون ثانية الى خدمات دينية تقام عصرا ومساء ، ويمشون جماعة ، ويسمعون عظة أخرى ، ويجدون بعض اللذة فى ترتيل الترانيم الجهورية . ولم يكن مسموحا بأى غناء فى ذلك اليوم المقدس ، ولا بلعب الورق ، ولا بأى تسلية من أى نوع كانت بصفة عامة . ويجتنب السفر فى يوم الرب ، فيعطى قطاع الطرق بهذه الطريقة يوم راحة .

ووجد فولتير فى معرض وصفه للمشهد الدينى فى انجلترا الكثير مما يصلح درسا لفرنسا التى مازال التعصب يحكمها . قال :

« انظر الى بورصة الأوراق المالية الملكية بلندن . . . هناك يجرى اليهودى والمسلم والمسيحى معاملاتهم معا وكأنهم من دين واحد ، ولا ينعنون بالكفر غير المفلسين . هناك يثق المشيخى بالقائل بعماد الكبار ، ويعتمد الأنجليكاني على كلمة الكويكرى . فاذا انفض هذا الجمع الحر مضي بعضه الى مجمع اليهود ، وبعضه ليشرب كأسا من الخمر . هذا الرجل يذهب ويعمد فى حوض هائل باسم الأب والابن والروح القدس ؛ وذاك يأمر بختان ولده وبتمتمة طائفة من الكلمات العبرية التى يجهل كل الجهل معناها فوق الطفل ؛ وآخرون (الكويكريون) يمشون الى كنائسهم - حيث ينتظرون الوحي وقبعاتهم على رعوسهم ؛ والكل راضون .

« ولو ان انجلترا لم تسمح بغير دين واحد ، لأصبحت الحكومة فى أغلب الظن مستبدة ؛ ولو كان هناك دينان فقط لذبح الناس بعضهم بعضا ؛ أما والأديان بهذه الكثرة ، فانهم جميعا يعيشون فى سعادة وسلام (١٥) » .

٢ - التحدى الربوبى

تضافرت عوامل كثيرة على تقويض صرح العقيدة المسيحية فى انجلترا : ارتباط الكنيسة بصعود الاحزاب السياسية وسقوطها ؛ وازدياد الثروة ومطالب اللذة فى طبقات المجتمع العليا ، ودولية الافكار بفضل التجارة والسفر ، والامام المتزايد بالاديان والشعوب غير المسيحية ، وتكاثر الملل وتبادل النقد فيما بينها ، وتطور العلم ، وازدياد الايمان بالاسباب الطبيعية والقوانين الثابتة ، والدراسة التاريخية والنقدية للكتاب المقدس ، واستيراد او ترجمة كتب خطيرة مثل « معجم » بيل و « الرسالة اللاهوتية السياسية لسبينوزا » ، والكف عن رقابة الدولة على المطبوعات (١٦٩٤) ، ومكانة العقل الصاعدة ، والمحاولات الجديدة للفلسفة ، فى أعمال بيكون ، وهوبز ، ولوك ، لتفسير العالم والانسان تفسيرات طبيعية و - تلخيصا لكثير من هذه العوامل - حملة الربوبيين (المؤلهة) Deists لاختزال المسيحية الى مجرد الايمان بالله والخلود .

وكانت تلك الحركة قد بدأت بكتاب « الحقيقة » لهزبرت لورد تشربرى فى ١٦٢٤ ، ونمت خلال القرن السابع عشر ومطلع الثامن عشر بتشارلز بلاونت ، وجون تولاند ، وأنتونى كولنز ، وواصلت الآن سيرها بأثر متراكم فى أعمال هويستن ، وولستن ، وتندال ، ومدلتن ، وتشب ، وأنت ، وبولنبروك ، وقد طرد وليم هويستن الذى خلف نيوتن استاذ « لوكازيا » للرياضة فى كمبردج من منصبه ذاك (١٧١٠) لأعرابه عن بعض الشكوك فى الثالوث ، فدافع عن أريوسيته فى كتاب « احياء المسيحية البدائية » (١٧١٢) ، وأجهد نفسه ليثبت ان تنبؤات العهد القديم لا تشير الى المسيح . فلما ألقى المدافعون عن المسيحية عن اتخاذ الحجج من التنبؤات ، وبنوا الوهية المسيح على المعجزات المروية فى العهد الجديد ، أطلق توماس وولستن سورته التى خلت من التوقير للمسيحية فى « ستة احاديث عن معجزات مخلصنا » (١٧٢٧ - ٣٠) . يقول فولتير « لم يهاجم المسيحية قط مسيحي بمثل هذه الجراءة (١٦) » . وقد زعم وولستن ان بعض المعجزات لا تصدق ، وبعضها غير معقول . ووجد ان مما لا يصدقه

العقل أن يلعن المسيح شجرة تين لأنها لم تثمر تينا فى وقت مبكر من العام كوقت الفصح . وتساءل ماذا كان مربو الأغنام لصوفها فاعلين يسوع لو أنه دفع أغنامهم الى الموت كما فعل بخنازير الجدرين ؛ انهم كانوا « يستصدرون حكما باعدامه شنقا » ، لأن القانون الانجليزى يعتبر هذا العمل جنائية كبرى (١٧) . وذهب وولستن الى ان قصة قيامة المسيح خدعة مفتعلة خدع بها الرسل سامعيهم . وغطى هذا كله بتأكيدات زعم فيها أنه ما زال مسيحيا « قويا كالصخرة » . ومع ذلك أهدى كل حديث الى أسقف مختلف ، مع التنديد بكبرهم وجشعهم تنديدا حملهم على رفع دعوى القذف والتجديف عليه (١٧٢٩) . وحكمت عليه المحكمة بدفع غرامة قدرها مائة جنيه ، وبتقديم ضمان لسلوكه سلوكا حميدا فى المستقبل . فلما عجز عن جمع المبالغ المطلوبة زج به فى السجن . وقدم فولتير ثلث المبلغ ، وجمع الباقي ، وأفرج عن وولستن . ولا شك أن المحاكمة كانت اعلانا عن « الأحاديث » ، فبيع منها ستون ألف نسخة فى بضع سنوات (١٨) . روت « سيرة لوولستن » بقلم كاتب مجهول (١٧٣٣) كيف أنه وهو سائر فى سانت جورجز فيلادز ، « لقيته شابة وسيمة وخاطبته بهذه الكلمات . . . أيها الوغد العجوز ، ألم تشنق بعد ؟ » فأجابها وولستن « أيتها المرأة الطيبة ، أنا لا اعرفك . فقولى لى من فضلك بم أسأت اليك » ؛ فأجابت المرأة « لقد هاجمت مخلصي ، فما الذى يحدث لنفسى الخاطئة المسكينة ، لولا مخلصي الحبيب ؟ - مخلصي الذى مات من أجل الخطاة الأشرار أمثالى (١٩) » .

وبلغت الدعوى الربوبية ذروتها فى ماثيو تندال ، زميل كلية جميع النفوس باكسفورد . فبعد حياة هادئة محترمة كان أهم ما ميزها اعتناقه الكاثوليكية ثم تحوله عنها ، نشر وهو فى الثالثة والسبعين أول مجلد من كتابه « المسيحية قديمة قدم الخليقة » (١٧٣٠) . وخلف عند موته بعد ثلاث سنوات مخطوطة مجلد ثان وقع فى يد أسقف فأتلفه . وفى وسعنا أن نقدر وقع المجلد الأول من الردود التى حاولت مناقضته وعددها ١٥٠ ، وهذا الكتاب هو الذى ابتعث كتاب الأسقف بطر « أوجه الشبه بين الدين والطبيعة » وكتاب الأسقف باركلي « السيفرون » (أو الفيلسوف الصغير) .

وقد طوفتندال في غير ترفق بكل أوهام اللاهوت . فتساءل لم أعطى الله وحيه لشعب صغير واحد هم اليهود ، وجعله حكرا عليهم أربعة آلاف سنة ، ثم أرسل اليهم ابنه بوحى آخر مازال بعد ألف وسبعمائة سنة مقتصرا على أقلية من الجنس البشرى . فإى نوع من الآلهة يمكن أن يكون هذا الآلة الذى استعمل هذه الطرق السقيمة بمثل هذه النتائج البطيئة الناقصة ؛ وأى اله رهيب هذا الذى عاقب آدم وحواء على طلب المعرفة ، ثم عاقب كل ذراريهم لمجرد أنهم ولدوا ؟ يقال لنا ان السخافات التى يتضمنها الكتاب المقدس سببها أن الله وفق كلامه للغة سامعية وأفكارهم . فياله من هراء ! لم لم يستطع أن يحدثهم بالحقيقة البسيطة بصورة مفهومة ؟ ولم استخدم الكهنة وسطاء له بدلا من أى يتحدث مباشرة الى نفس كل انسان ؟ ولم سمح بأن يصبح دينه الموحى لشعب بعينه أداة اضطهاد ، وارهاب ، وحرب ، لا يخرج منه البشر بعد قرون من هذا التدبير الالهى أكثر فضيلة منهم عن ذى قبل ؟ - بل جعلهم فى الواقع أشد ذراوة وقسوة مما كانوا فى ظل العبادات الوثنية ! أليس فى كونفوشيوس أو شيشرون فضيلة أرفع مما فى مسيحية التاريخ ؟ ان الوحى الحقيقى ، وجود فى الطبيعة ذاتها ، وفى عقل الانسان المنوح من الله ؛ والاله الحقيقى هو الاله الذى كشف عنه نيوتن ، المهندس لعالم عجيب يعمل بعظمة وجلال وفق قانون ثابت ؛ والفضيلة الحقة هى حياة العقل فى انسجام مع الطبيعة ، « نكل من ينظم ميوله الفطرية بحيث تؤدي الى أقصى حد لاستخدام عقله ، وصحة جسده ، ولبادات حواسه ، مجتمعة كلها معا (لأن فى هذا سعادته) - له أن يثق بأنه لا يمكن أن يغضب خالق الذى اذ يحكم كل الأشياء حسب طبائعها فهو لابد يتوقع من مخلوقات العاقلة أن تسلك وفق هذه الطبائع (٢٠) » . تلك هى الفضيلة الحقة ، تلك هى المسيحية الحقة « القديمة قدم الخليقة » .

وواصل كونيترز مدلتن الهجوم من الزاوية التاريخية . فبعد أن تخرج فى كلية ترنتى بكمبردج رسم قسيسا ، وبينما كان يكيل الضربة تلو الضربة للأيمان السنى ، واصل الممارسات الخارجية للعبادة المسيحية . وقد كتب طرفا من أفضل النثر فى عصره ، وكتابه « سيرة شيشرون » (١٧٤١) ما زال الى اليوم سيرة رائعة رغم كثرة

ما استعارة من سير شيشرون التي سبقته . وقد أبهج زملاءه القساوسة حين أرسل الى انجلترا « رسائل من روما » (١٧٣٩) ، التي بين فيها بتفصيل ينم على علم ودراية رواسب الطقوس الوثنية المتخلفة فى مجموعة الطقوس الكاثوليكية - البخور ، والماء المقدس ، وآثار القديسين ، والمعجزات ، والقرايين المنذورة والأنوار القائمة أمام المزارات المقدسة ، و « كبير الأحرار Pontifex Maximus » القديم الذى أصبح كبير أحرار روما Pontiff . وصفقت انجلترا البروتستنتية للرسائل ، ولكنها سرعان ما تبينت أن ولع مدلتن بالتاريخ يمكن أن يكدر صفو اللاهوت البروتستنتى كالكاثوليكي سواء بسواء . فلما دافع دانيال ووترلاند عن حرفية صدق الكتاب المقدس ووحىيه ردا على تندال ، أنذر مدلتن فى « رسالة الدكتور ووترلاند » (١٧٣١) اللاهوتيين البروتستنت بأن تشبههم بكل أساطير الكتاب المقدس باعتبارها تاريخا فعليا ليس الا عملا انتحاريا ، لأن تقدم المعرفة سوف ينبذ ان عاجلا أو آجلا مثل هذه الخرافات ويكره المدافعين المسيحيين على التقهقر فى خجل الى موقف أكثر تواضعا . ثم لجأ مدلتن الى حجة فضحت ما كان لدراسته للتاريخ من أثر فى ايمانه الدينى فقال : « حتى ولو كان اللاهوت المسيحى لا يصدق ، فان المواطن الصالح سيساند المسيحية والكنيسة المسيحية باعتبارهما درعا للنظام الاجتماعى يوفر روادع ممتازة للهمجية الكامنة فى طبيعة البشر (٢١) » .

وأخيرا أصدر مدلتن أهم أعماله ، « تحقيق حر فى القوى الاعجازية المزعوم أنها وجدت فى الكنيسة المسيحية خلال العصور المتعاقبة » (١٧٤٨) - وهو كتاب عدّه هيوم بعد ذلك أسمى من مقاله المعاصر « فى المعجزات » (١٧٤٨) . وقد بدأ بالتسليم بحجية المعجزات المنسوبة فى الاسفار القانونية من العهد الجديد الى المسيح أو رسله ، وأراد أن يظهر فقط أن المعجزات المنسوبة الى آباء الكنيسة وقديسيها وشهادتها بعد القرن الميلادى الأول غير جديرة بالتصديق ، ومجرد سرد تلك القصص يكفى للكشف عن سخفها . وقد أمّن بعض آباء الكنيسة على مثل هذه القصص وهم يعلمون زيفها ؛ ونقل مدلتن عن موزهايم ، المؤرخ الكنسى العلامة ، تصريحه بالخوف من أن « الذين يبحثون بشيء من العناية كتابات أعظم وأقدس لاهوتى القرن الرابع

سيجدونهم كلهم وبلا استثناء ميالين الى الخداع والكذب كلما اقتضت ذلك مصلحة الدين (٢٢) .

وفى كتاب مدلتن عيوب كثيرة . فقد فاته انه هو ايضا زكى الخداع بالجملة دعما للمسيحية ، وغفل عن ان من التجارب الغربية ، كاخراج « المس الشيطاني » ، او كسماع القديس انطونيوس للشيطان واقفا ببابه ، ما يمكن ان ينشا عن قوة الايحاء او الخيال ، وربما بدت هذه التجارب من قبيل المعجزات لمن رووها بامانة . على اى حال كان من اثر هذا « التحقيق الحر » انه سلط على معجزات العهد القديم ثم على معجزات العهد الجديد ، طرق النقد ذاتها التى طبقتها مدلتن على عصر آباء الكنيسة ، وكان خصومه الكاثوليك محقين تماما حين زعموا ان حججه من شأنها اضعاف كل الاساس الاعجازى للايمان المسيحى . ولعل مدلتن قد قصد الى هذا . ولكنه احتفظ بترقياته الكنسية الى النهاية .

كان اعتناق بولنبروك للربوبية سرا مخفى وعدوى متفشية فى الطبقة الأرستقراطية . ففى كتاباته التى حبسها عن النشر فى حياته صوّب قدحه المفعم بالازدراء الى جميع الفلاسفة تقريبا فيما عدا بيكون ولوك . فلقب أفلاطون بابى الكذب اللاهوتى ، وسمى القديس بولس « حالما متعصبا » وليبنتر « مشعوذا كيميائيا (٢٣) » والميتافيزيقيين « مجانين منقفين » ووصف كل القائلين بتميز النفس عن الجسد بانهم (٢٤) « معتوهون روحيون » وسخر من العهد القديم لأنه خليط من الهراء والأكاذيب (٢٥) . ولقد صرح بايمانه بالله ، ولكنه رفض ما بقى من العقيدة المسيحية . فكل المعرفة عنده نسبية وغير يقينية . يقول : « ينبغى لنا دائما ان نكون غير مؤمنين . . . ففى الدين ، والحكم ، والفلسفة ، ينبغى ان نتشكك فى كل شيء مقرر (٢٦) » وألقى وراء ظهره بأخر تعزيات الشكاك وهى الايمان بالتقدم ؛ فكل المجتمعات تمر بدورات « من النشوء الى الفساد ، ومن الفساد الى النشوء (٢٧) » .

وفى ١٧٤٤ ورث بولنبروك ضيعة الأسرة فى باترسى ، وغادر

فرنسا لينفق هناك آخر سنى صراعه مع المرض والياس . وهجره أصحابه القدامى لانهيأ نفوذه السياسى وحدة طبيعه . وأنهى موت زوجته الثانية (١٧٥٠) اهتمامه بشئون البشر ، « فى كل سنة أزداد عزلة فى هذه الدنيا (٢٨) » وهذا عقاب الأناية . وفى ١٧٥١ ابتلى بالسرطان الذى انتشر من وجهه فأملى وصية تتسم بالثبوتى ، ولكنه رفض أن يسمح لأى قسيس بالاهتمام بروحه (٢٩) . ومات فى ١٢ ديسمبر بعد ستة شهور من العذاب ، بغير أمل لا لنفسه ولا للبشر . لقد أخذ اضمحلال الايمان الدينى يولد ذلك التشاؤم الذى سيصبح العلة الخفية التى تبتلى بها النفس العصرية .

٣ - الدافع الدينى

أما المدافعون عن المسيحية فلم يقابلوا الهجوم الربوبى بأى استسلام أو هزيمة ، بل انهم على العكس من ذلك ردوا الهجوم بكل ما أوتى تندرال أو مدلتن أو بولنبيروك من قوة عارمة ، وعلم واسع ، وأسلوب مقذع . واعتمد المدافعون الأضعف شأنا ، مثل تشاندلر أسقف لتشفيلد ، ونيوتن أسقف لندن ، على الحجج البالية ، وهى أن اليهود كانوا ينتظرون فى حرارة وشوق مجيء « المسيا » حين أتى المسيح ، وأن كثيرا من النبؤات اليهودية تحققت على يديه ؛ أو رجعوا - كما فعل شرلوك أسقف لندن وبيرس أسقف روتشستر - الى الشواهد الكثيرة على قيامة المسيح . وركز شرلوك وغيره على أن الأدلة على معجزات المسيح غامرة ساحقة ، وفيها الكفاية لدعم الوهية المسيح والمسيحية . وقال شرلوك ان رفض حدث توافرت الأدلة على صدقة لأنه يناقض تجربتنا عمل شديد الخطر ، فعلى الأساس نفسه رفض سكان المدارين أن يؤمنوا بحقيقة الثلج . فاذا زعمنا أن الأشياء لا يمكن أن تكون غير ما عرفناها ، « تجاوزنا اعلام حواسنا ، وقامت النتيجة على الهوى لا على العقل (٣٠) » . وليس فى امكاننا التأكد من أن الانسان لن يقوم من الأموات برغم تجربتنا الواسعة ، الضيقة فى حقيقتها . فانظر كم من العجائب التى نقبلها الآن على أنها أحداث عادية فى حياتنا كنا من قبل نظنها بعيدة التصور !

أما جورج باركلي ، الذي ترك بصمته على الفلسفة في السنوات ١٧٠٩ - ١٣ ، فقد أدلى بدلوه في الجدل من جزيرة رود بكتابه « السيفرون » أو الفيلسوف الصغير (١٧٣٣) ، وهو حوار يتالق بالتفكير الجريء والأسلوب المرح . والسيفرون هذا يصف نفسه بأنه رجل حر التفكير ، تقدم من التسامح الدينى الى الربوبية الى الالحاد ، وهو الآن يرفض الدين كله باعتباره خداعا يموه به الكهان والحكام على الناس ؛ وهو يابى الايمان بأى شيء غير الحواس ، والعواطف ، والميول الفطرية ؛ وينذر بوفرانور (لسان حال باركلي) الربوبيين بأن عقيدتهم مفضية الى الالحاد ، وأن الالحاد سيفضي الى انهيار الفضيلة . قد يكون هناك بعض الملحددين الأفاضل ، ولكن ألا تولد عقيدتهم ، اذا ما قبلتها الجماهير ، الاباحية والتمرد على القانون ؟ وهؤلاء المتشككون فى الدين ينبغى أن يتشككوا فى العلم أيضا ، لأن كثيرا من دعاوى العلماء - كما هى الحال فى الرياضة العليا - تتجاوز تماما شهادة حواسنا أو تناول فهمنا . وما من شك فى أن عقيدة التثليث ليست أعصي على الفهم من الجذر التربيعى لناقص واحد .

وأما وليم وربرتن فلم يكن بالرجل الذى يرسى ايمانه او موارده الكنسية على أساس واه كجذور باركلي الصماء . فبعد أن تدرّب لممارسة المحاماة ، ورسم قسا انجليكانيا ، شق طريقة وسط غابة اللاهوت بكل ما أوتى الذهن القانونى من براعة يقظة . ولعله كان أصلح للجيش منه للمحاماة أو لرداء الكهنوت ، فقد كان يستطيب العراك ، وما كان يستطيع النوم فى الليل الا اذا أردى خصما فى النهار . وقد وصف حياته بأنها « حرب على الأرض ، أى على المتعصبين والمنحازين ، الذين أعلنت عليهم الحرب الأبدية كما فعل هانيبال أمام المذبح (٣١) » . واتسع مرمى سهامه وبعد ، فاذا أخطأت الخصوم قتلت الأصدقاء . وقد وصف معاصريه بأوصاف محكمة . فجونسن « بلطجى » خبيث وقح ، وجاريك « اذا انحرف مرة وتكلم كلاما له معنى كان أقرب الى الهراء » ، وسموليت « اسكتلندى متشرد » يكتب « لغوا مضروبا فى عشرة آلاف » ، وفولتير « وغد » يتمرغ فى « أقذر حالوعات التفكير الحر (٣٢) » .

وقد ظهرت رائعته الضخمة ذات المجلدين فى ١٧٣٧ - ٤١ بعنوان « رسالة موسى الالهية مفسرة طبقا لمبادئ ربوبى دينى » وكانت حجتها مبتكرة وفذة . فالإيمان بحالة مستقبله من الثواب والعقاب لا غنى عنه للنظام الاجتماعى (وهو ما وافق عليه الكثير من الربوبيين) ، ولكن موسى وفق فى تنظيم الحياة اليهودية وأبلاغها حالة من الرخاء والفضيلة بغير ذلك الايمان ، ولا تفسير لهذه المعجزة الا بالارشاد الالهى لموسى واليهود ، ومن ثم فرسالة موسى ونواميسه الهية ، والكتاب المقدس كلمة الله . وأحس ويرتن أن هذا الايضاح « قريب كل القرب من اليقين الرياضى (٣٣) » ولم يكن زملاؤه اللاهوتيون سعداء كل السعادة برأيه فى أن الله أرشد اليهود خلال ٦١٣ قانون وأربعة آلاف سنة دون أن يعلمهم أن نفوسهم خالدة . ولكن المؤلف القوى ملاً صفحاته ببحوث علمية - عن طبيعة الفضيلة ، وعن التحالف الضرورى بين الكنيسة والدولة ، وعن ديانات الاسرار والشعائر فى العصور القديمة ، وعن أصل الكتابة ، وعن معنى الرموز الهيروغليفية ، وعن التاريخ المصرى ، وعن تاريخ سفر أيوب ، وعن إخطاء أحرار الفكر ، والآثريين ، والعلماء ، والمؤرخين ، والتوحيديين ، والأتراك ، واليهود - حتى لقد ذهلت انجلترا بأسرها لثقل علمه واتساع مداه . وتقدم ويرتن من معركة الى معركة - ضد كروساز ، وثيوبولد ، وبولنبروك ، ومدلتن ، ووسلى ، وهيوم - حتى بلغ أسقفية جلوستر المريحة المجزية .

وأما جوزف بطلر فكان ألين عودا ولكنه أكثر رهافة وتهذيبا ، رجلا بالغ الرقة والتواضع والاحسان ، حَزَّ فى نفسه كثيرا أن يرى الدين الذى أعان على فطم الحضارة الأوربية من الهمجية ، يواجهه امتحانا من أجل حياته . وقد صدمه الاقبال الذى لقيته مادية هوبز فى الطبقات العليا . فلما عرضت عليه (١٧٤٧) رأسه أسقفية كنتربرى - وهى أعلى منصب كنسى فى انجلترا - رفضها معتذرا بأن قد « فات وقت محاولة دعم كنيسة متداعية (٣٤) » . وفى ١٧٥١ أعرب عن خزعه « لما أصاب الدين من انحلال شامل فى هذه الأمة . . . فتأثيره يبلى أكثر فأكثر فى أذهان الناس . . . وعدد الذين يجهرون بالكفر فى ازدياد ، وتحمسهم للكفر يزداد بتزايد عددهم (٣٥) » . وقد أدهش

صديقه « دين تكرر » بسؤاله : الا يجوز أن تصاب الأمة كما يصاب الفرد بالجنون ؟ وكأنه شعر أن شعبا من الشعوب قد يصاب بفقد الذاكرة المروحي اذا تخلى عن تراثه الدينى والخلقى .

ومع ذلك كرس حياته فى محاولة لرد اعتبار عقلى للايمان المسيحى . فنشر وهو ما زال قسيسا شابا فى الرابعة والثلاثين « خمس عشرة عظه » (١٧٢٦) لطف فيها من تحليل هوبز المتشائم للطبيعة البشرية ، فزعم أن الانسان وان كان فى نواح كثيرة شريرا بطبيعته ، الا أنه بطبيعته أيضا كائن اجتماعى أخلاقى ، فيه احساس فطرى بالحق والباطل . وقال ان العناصر الأسمى فى كيان الانسان تدين بأصلها لله ، الذى هى صوته ، وعلى هذا الاساس أقام نظرية عامة تقول بان هناك قصدا ألها يتخلل العالم . وأعجبت كارولين بحجته ، وفى ١٧٣٦ عين بطرر كاهنا خاصا للملكة .

فى ذلك العام نشر كتابا ظل طوال قرن أهم حصن لحجج المسيحية ضد الالحاد ، واسمه « وجه الشبه بين الدين الطبيعى والموحى ، وبين تكوين الطبيعة ومسلكها » وقد كشفت مقدمة الكتاب عن مزاج العصر :

« لقد انتهينا - ولا أدرى كيف انتهينا - الى حال أصبح فيها من القضايا المسلمة عند الكثيرين ، أن المسيحية ليست موضوعا يكثُر فيه البحث والتحقيق الا لأنه قد تبين آخر الأمر أنها ديانة زائفة . ومن ثم يتناولونها وكان هذا بات الآن نقطة يجمع عليها كل أصحاب الفطنة والتمييز ، فلم يبقَ إلا أن يجعلوا منها هدفا رئيسيا للهزء والسخرية ، وكأنهم يعاقبونها لأنها قطعت على الناس لذات الدنيا هذا الزمان الطويل (٣٦) »

واذ قصد بالكتاب أن يكون ردا على الربوبيين ، فإنه افترض وجود الله . وكان « الدين الطبيعى » الذى يدين به الربوبيون يقبل « اله الطبيعة » ، مخطط العالم وصانعه الأعظم ، ولكنه يرفض الآله الذى صوره الكتاب المقدس ، وهو اله ظالم ظلما بينا ، لأنه لا يتفق أبدا وهذا المفهوم السامى . وأراد بطرر أن يبين أن فى الطبيعة من علامات الظلم

والقسوة ما لا يقل عما فى « يهوه » كما صورته العهد القديم ؛ وأتته
لا تناقض بين اله الطبيعة واله الوحي ، وأن الذين قبلوا أحدهما ينبغى
منطقيا أن يقبلوا الآخر . ويبدو أن كاهن الملكة الخاص ، الطبيب ، لم
يدر بخلده قط أن بعض الشكاك الوقحين قد يخلصون من هذه الحجة
(كما خلص جيمس مل) الى أنه لا هذا الاله ولا ذاك جدير بأن يعبد
المتحضرين .

وأقام بطر حجته فى وجود الالهين ، وفى أنهما واحد ، على
الترجيح والاحتمال . فقال ان عقولنا ناقصة ، وأنها عرضة لكل ضروب
الخطأ ، فليس فى امكاننا أن نصل الى اليقينية لا فى مر الله ولا فى
أمر الطبيعة ؛ وحسبنا الترجيح ، والترجيح يؤيد الايمان بالله والايمان
بالخلود . وواضح أن النفس أسمى من الجسد ، لأن أعضاء الجسد
أدوات النفس وخدامها . والنفس ، التى من الواضح أنها جوهر
الانسان ، لا داعى لفنائها مع الجسد ، وأغلب الظن أنها عند الموت
تبحث عن أدوات جديدة فى مرحلة أعلى . وليس من المريح للطبيعة
أن يتغير كائن من صورة أدنى الى صورة أعلى - كتغير الكائنات الزاحفة
مثلا الى كائنات مجنحة ، أو تغير الخادرة الى فراشة ؛ وقياس آخر
يرجح أنه سيكون فى حياة النفس بعد موت الجسد الوان من الثواب
والعقاب - مع الافتراض دائما بان الله موجود . فكما أننا نعاقب
المجرمين على جرائمهم ضد المجتمع ، كذلك تعاقب الطبيعة فى معظم
الحالات الناس على ما اقترفوا من آثام ؛ ولكن بما أن هناك أمثلة كثيرة
لا تلقى فيها الرذيلة عقابا واضحا ، ولا الفضيلة ثوابا واضحا ، فى هذه
الحياة ، لذلك كان مما لا يصدق أن الله لن يعيد ، فى حياة أخرى ،
علاقة أكثر انصافا بين السلوك والمصير . وضميرنا ، حسنا الخلقى ،
لا يمكن أن يكون قد جاعنا الا من لدن اله عادل .

وأكثر ما لحجج بطر من أهمية فى عصرنا هذا مرجعه أنها توضح
مرحلة فى تطور العقل العصرى . ونحن اذا نظرنا اليها باعتبارها
موجهة أصلا ضد الربوبيين وجدنا فيها فكرة لا يستهان بها ؛ فالذين
قبلوا شهادة القصد الالهى فى الطبيعة ، لا مبرر لهم فى رفض الكتاب
المقدس بسبب الاله القاسى المعلن عنه فى العهد القديم ، لأن اله الطبيعة

لا يقل عنه قسوة . لقد كانت طريقة غاية فى الأصلالة فى الدفاع عن المسيحية . والظاهر أن بطر لم يتوجس من أن هذه الحجة قد لا تفضي الى المسيحية ، بل الى شيء أشد دفعا الى اليأس من الكفر . الى النتيجة التى خلص اليها توماس هنرى هكسلى ، وهى أن القوى المطلقة فى الكون أو وراءه غير أخلاقية ، تتناقض أشد التناقض مع ذلك الاحساس بالحق والباطل الذى بنى عليه بطر ، كما بنى عليه كانط ، الكثير من لاهوته . على أية حال كان كتاب « وجه الشبه » خطوة الى الأمام ولو فى هدوئه ولطفه ، فهنا لا تجد كراهية لاهوتية ، ولا قدحا دينيا ، بل محاولة جادة من الكاتب للتأدب حتى مع أولئك الذين بدوا أنهم يدمرون أعز آمال البشر . ورحبت الملكة كارولين بالكتاب لأنها رأت فيه أفضل دفاع ظهر الى ذلك الحين عن العقيدة المسيحية . وأوصت وهى على فراش الموت بترقية بطر ، فعينه جورج الثانى أسقفا على برستل ، ثم ناظرا على كتدرائية القديس بولس ، وأخيرا أسقفا على درم . وهناك ضرب بطر المثل لزملائه بالعيشة البسيطة والتصدق على الفقراء بجانب كبير من دخله .

وقد ترك كتابه للكفر منافذ كثيرة حتى ان كثيرا من رجال الكنيسة أشاروا بالكف عن هذا الجدل ، وآثروا أن يرسوا ايمانهم على الحاجات والعواطف الدينية بعيدا عن سهام العقل . مثال ذلك أن كتاب « هنرى دودويل » المسيحية دون أساس من الجدل « (١٧٤٢) يرفض الجدل العقلى فى المسائل الروحية ، لأنه لا يهدى الى الحقيقة ، وأقل من ذلك الى السعادة ، انما هو رقصة موهنة ترتفع فيها الحجج المؤيدة والمعارضة ، وما من انسان يقيم ايمانه على مثل هذه الأسس المائعة . وذهب دودويل الى أن حجج كلارك ، ووربرتن ، وبتلر ، وغيرهم من المدافعين المسيحيين ، قد هزت من الايمان الدينى أكثر مما قوت ، وربما لم يكن هناك الحاد لولا أن المحاضرين فى محاضرات بويل التذكارية دأبوا كل عام على تنفيذ الالحاد . ان المسيح لم يجادل ، بل علم كمن له سلطان . فانظر الى أى شخص متدين حقا ، تجد فيه اقتناعا باطليا ، لا استنتاجا عقليا ؛ فالايمان للنفس البسيطة يجب أن يكون تقليدا مقبولا ، وللروح الناضجة يجب أن يكون شعورا مباشرا بواقع فوق الطبيعة .

أما وليم لو ، فبعد أن ترك بصمته على الجدل مع الربوبيين ، دفعته قراءة يعقوب بومى الى التحول من الجدل الى الصوفية ؛ وفى نصف القرن الذى نحن بصدده ، والمتسم بالمادية والكليية الظافرتين ، كتب عن الوجود الباطن للمسيح ومحفته الفادية بحرارة وثقة كأنه توماس أكمببىس مولودا من جديد دون أن يطرأ عليه تغيير . وقد ضحى بكل المطامح الدنيوية برفضه حلف اليمين التى تعترف بجورج الأول رأسا للكنيسة لانجليزية ؛ فحرم زمالته بكمبردج ، واستتردت درجاته الجامعية . ثم أصبح معلما خاصا لأبى ادورد جيبون ، ومكث مع تلك الأسرة ردحا كفى لأن يذكره المؤرخ (جيبون) . قال هذا الشاك « لقد ترك فى أسرتنا سمعة الرجل الفاضل التقى الذى يؤمن بكل ما يصرح به ، ويمارس كل ما يأمر به (٣٧) » وقد أثنى جونسن على كتاب لو « دعوة جادة الى حياة تقية مقدسة » (١٧٢٩) وقال انه « أروع قطعة من اللاهوت الوعظى فى أى لغة (٣٨) » فمن المؤكد أن صوفية الكتاب أصح من تلك التى تتوه فى روعى خارقة ، سماوية كانت أو جهنمية . كتب لو يقول : ليس هناك شيء خارق للطبيعة فى نظام فدائنا كله ، فكل جزء فيه له اساس فى أعمال الطبيعة وقواها ، وكل فدائنا انما هو الطبيعة مصححة . « وليست الجحيم مكانا ، بل هى حالة النفس المضطربة ، ولا الجنة مكانا ، ولا « حالة غريبة ، منفصلة ، مفروضة » ، بل هى سعادة نفس فى نظام وسلام (٣٩) . ومع أن لو كان عضوا مخلصا فى الكنيسة لانجليزية ، فانه كان يحلم برهبنة مجددة بروتستنتية . يقول :

« اذن لو أن أشخاصا من الجنسين . . . تواقين الى الكمال ، تجمعوا فى جماعات صغيرة ، تنذر الفقر الاختيارى ، والتبتل ، والعزلة ، والعبادة ، حتى تخفف صدقاتهم حاجة البعض ، ويتبارك الجميع بصلواتهم وينتفعوا بقدوتهم . . . هؤلاء لا يتعرضون للاتهام بأى ميل للخرافة أو تعبد أعمى . . . بل يمكن أن يقال حقا وصدقا أنهم يستعيدون تلك التقوى التى كانت فخر الكنيسة ومجدها على حياة قديسيها العظام (٤٠) » .

وقد أثرت مثل لو العليا ونثره الرائع فى عمدة جيبون

هستر جييون ، تأثيرا حملها هي وأرملة غنية على الذهب للعيش يقربه في مسقط رأسه كنجزكليف بنورثمتونشير ، وكستا أكثر دخلهما لأعمال البر تحت اشرافه . وقد وجد هذا الرجل سعادته في توزيع الطعام والثياب والعظات على الفقراء والمرضى والمحرومين ، وهو الذى كان فى يوم ما طالب علم شغورفا بالبحث ، محبا للصحة المثقفة المهذبة . وغالى فى تقشفه ، فأنكر جميع لذات الدنيا تقريبا ، ووجد الحملة البيورتانية على المسرح باعتباره « بيت الشيطان » أو على الأقل « شرفة الجحيم (٤١) » . ولم يكن الخلق الانجليزى ، ولا مزاج العصر ، حفيين بصوفية لو ، وبدا أنه مختتم حياته فى خمول ذكر عقيم ، واذا جون وسلى يأتى ليجلس عند قدميه .

٤ - جون وسلى : ١٧٠٣ - ٩١

اذا أردنا أن نفهم مكانه من التاريخ ووجب أن نذكر انفسنا ثانية بأنه حين أسس هو وأخوه تشارلز الحركة الميثودية Methodism فى أكسفورد (١٧٢٩) كان الدين فى انجلترا أخط منزلة مما كان فى أى فترة من فترات التاريخ الحديث . فلم يكن يختلف الى الكنيسة من أعضاء مجلس العموم أكثر من خمسة أو ستة (٤٢) . وكان رجال الاكليروس الانجليكاني قد غالوا فى قبولهم العقلانية غلوا جعلهم يبنون كل كتاباتهم تقريبا على الجدل العقلى . وندر أن ذكروا الجنة أو النار ، وكانوا يؤكدون على الفضائل الاجتماعية دون الغيبيات . والعظة الانجليزية كما وصفها فولتير كانت « رسالة جدية ولكنها جافة أحيانا ، يقرؤها رجل على الشعب دون ايماءة ودون أن يرفع صوته رفعا ملحوظا (٤٣) » . ولم يكن الدين نشيطا حارا الا فى المذاهب المنشقة التى تتبعها الطبقة الوسطى . وكان عمال المدن مهملين اهمالا كليا تقريبا من الاكليروس الانجليكاني ، « كان هناك فرقة ضخمة تتألف من أدنى الطبقات ، أفرادها بعيدون عن متناول التعليم أو الدين ، لا دين لهم ، ولم يعلموا ديننا على الاطلاق (٤٤) » ، وقد أسلموا الى فقر لا يضيئه نور الأمل الدينى الا قليلا . فى هذه الخلفية أحياء جون وسلى وجورج هوايتفيلد العقائد والآداب البيورتانية أحياء قويا وأسسوا الكنيسة الميثودية .

كان اللاهوت والثورة يجريان فى عروق آباء وسلى . فجده الأكبر يرتلميو وستلى طرد من وظائف القسوسية فى دورست لأنه واهل العبادة المنشقة بعد أن "رد" الاحتكار الكنسي فى انجلترا للكنيسة الانجليكانية . وأصبح جد جون ، جون وستلى ، قسيسا فى دورسيت ، وسجن لرفضه أن يستعمل كتاب الصلاة العامة ، وطرد من القسوسية ، وأصبح راعيا منشقا فى بول . وأسقط والد جون ، واسمه صموئيل وسلى ، حرف التاء من اسمه ، وشق طريقه الى أكسفورد ، وهجر المنشقين ، ورسم قسيسا أنجليكانيا ، وتزوج سوزانا آنزلى (وكانت بنت واعظ) وأصبح قسيس ايپورث فى لنكولنشير ، ومات من أبنائه التسعة عشر ثمانية فى طفولتهم - وفى هذا بيان لشقاء النساء ، وفحولة القساوسة المستهتره ، ونوعية الطب فى انجلترا القرن الثامن عشر . وكان الأب مؤدبا صارما فى البيت وعلى المنبر ، نشأ أبناءه على الخوف من اله منتقم ، وأدان احدى رعايا أبرشيته بالزنا ، وأجبرها على السير فى الشارع فى مسوح التوبة (٤٥) . وكانت زوجته ضربيا له فى الصرامة والتقوى . فلما بلغ ابنها الأشهر التاسعة والعشرين شرحت له فلسفتها فى التربية الخلقية فقالت :

« اننى أصر على قهر ارادة الأطفال فى وقت مبكر ، لأن هذا هو الأساس القوى والمعقول الوحيد للتربية الدينية ، الذى بدونه لا يكون للتعاليم ولا للقدوة جدوى . ولكن متى قهرت هذه الارادة قهرا تاما أصبح فى الامكان أن يحكم الطفل بعقل أبويه وتقواهما ، الى أن يبلغ فهمه درجة النضج . . . فاذا بلغ الطفل عاما كانوا (أى أطفالها) يعلمون أن يخافوا العصا ويبكوا بصوت خافت ، وبهذه الطريقة وفروا على أنفسهم الكثير من العقاب الذى كان يصيبهم ان لم يفعلوا (٤٦) » .

وأصبح أكبر أبنائها ، صموئيل وسلى الثانى ، شاعرا وعالما وقسيسا أنجليكانيا أنكر على أخويه مذهبهما المثودى . وكان الطفل الثامن عشر هو تشارلز وسلى ، الذى دعم مواعظ أخيه جون دعما قويا بترانيم بلغ

عددها ٦٥٠٠ . أما جون فكان الخامس عشر ، وهو مولود بايبورث فى ١٧٠٣ . فلما بلغ السادسة احترق بيت القسيس ، وتركته الأسرة وسط النيران ظنا منها أنها قضت عليه ، ولكنه أطل من شبك فى الطابق الثانى ، فأنقذه جار وقف على كتفى آخر ، وسمى نفسه بعد ذلك « جمرة اختطفت من بين المحترقين » ولم يتغلب قط على خوفه الشديد من الجحيم . وفى بيت أبيه كانت أى ضوضاء غير واضحة السبب ، تفسر على أنها وجود خارق للطبيعة ، شيطانى أو الهى .

وحين بلغ جون الحادية عشرة أرسل الى مدرسة تشارتر هاوس الحرة ، وفى السابعة عشرة الى كرايست تشيرش بأكسفورد . وقد تغلب على ضعف صحته بآدمان المشي والركوب والسباحة ، فعمّر حتى بلغ الثامنة والثمانين . وقرأ كثيرا ، واحتفظ بمذكرات ومقتطفات من قراءته توخى فيها التدقيق والعناية . وكان أحب الكتب اليه كتاب جيريمى تيلر « الحياة المقدسة والموت المقدس » ، وكتاب توماس أكمبس « محاكاة المسيح » . وبدأ - حتى فى أيام دراسته بالكلية - تلك اليومية التى هى احدى آيات الأدب الانجليزى والتقوى البروتستنتية . وقد كتب بعضها بالشفرة والاختزال . وفى ١٧٢٦ عين زميلا بكلية لنكولن ، وفى ١٧٢٨ رسم قسيسا أنجليكانيا .

وأخوه تشارلز هو الذى بدأ بجمع فى اكسفورد جماعة صغيرة من نحو خمسة عشر طالبا ومعلما اعتزموا ممارسة المسيحية بدقة منهجية . وأعداؤهم هم الذين خلعوا عليهم تهكما وازدراء اسمى « النادى المقدس » و « المثوديين » . وكانوا يقرءون معا العهد الجديد اليونانى والآداب القديمة ، ويصومون كل أربعاء وجمعة ، ويتناولون العشاء الربانى كل أسبوع ، ويتفقدون المسجونين والمرضى ليقدموا لهم العزاء والأمل الدينى ، ويرافقون المحكوم باعدامهم الى المشنقة . ووصل جون وسلى الى تزعم الجماعة بفضل شدة حماسه وتقواه ، فكان يستيقظ كل كل يوم فى الرابعة - وهى عادة احتفظ بها حتى وهو طاعن فى السن،

ويخطط منهجيا فى كل صباح الاعمال التى تؤدى فى كل ساعة من ساعات اليوم . وكان يعيش على ثمانية وعشرين جنيها فى العام ، ويوزع باقى دخله على أعمال البر . وقد أكثر من الصوم حتى بدأ مرة أنه قد دمر صحته تدميرا لا براء منه . وكان يحج راجلا الى وليم لو يلتمس منه النصيحة ، وأصبح كتاب لو « دعوة جادة الى حياة تقية مقدسة » مرشده الروحى . تقول يومياته أنه من هذا الكتاب « فاض النور على نفسى بقوة حتى ظهر كل شيء فى صورة جديدة (٤٧) » .

وفى ١٧٣٥ دعا الجنرال أوغلثورب جون وتشارلز ليرافقاه مبعوثين دينيين الى جورجيا . واذ كان أبوهما قد مات فانهما التمسأ مشورة أمهما . فقالت لهما « لو كان لى عشرون ولدا لأبهنى أن يتدعوا الى مثل هذا ، حتى ولو لم أرهم بعد ذلك أبدا (٤٨) » . فليت شعرى أنى لنا نحن المجردين من التقوى أن نفهم هذه التقوى ؟ وأرجئت جلسات « النادى المقدس » الى أجل غير مسمى ، وفى ١٤ أكتوبر أبحر جون وتشارلز و « مثوديان » آخران على السفينة « سيموندىز » قاصدين سافانا . وفى السفينة أثرت فيهم التقوى المرحة التى آنسوها فى بعض « الأخوة المورافيين » الذين قدموا من ألمانيا ليستوطنوا أمريكا ، فلما هاجمت عاصفة هوجاء المركب الصغير لم يجد على المورافيين أثر لخوف ، وقارعوا رياح العاصفة بقرانيمهم القوية ، وأحس الوسليان أن هذا ايمان يفوق ايمانها قوة .

فلما بلغا جورجيا (٥ فبراير ١٧٣٦) اتخذوا منصبين مختلفين ، فأصبح تشارلز سكرتيرا للحاكم أوغلثورب ، وجون راعيا للجالية الجديدة ، ومرسلا بين الحين والحين للهنود الحمر المجاورين . وأثنى أول الأمر على الهنود لشوقهم الى تقبل الانجيل ، ولكنه وصفهم بعد عامين بأنهم « شرهون ، لصوص ، مراعون ، كذابون ، قتلة لأبائهم ، قتلة لأمهاتهم ، قتلة لأبنائهم » ، وقيل انه « لم يوفق مع الهنود (٤٩) » . أما السكان البيض ، الذين كانوا يضمون مئات من

المجرمين المنفيين ، فقد أنكروا لهجته الأكسفوردية وروحه الأمرة النهائية وإصراره على أدق قواعد الطقوس والنظام . ففي العماد اشترط التغيطس الكامل ثلاث مرات ، فإذا اعترض والد رفض أن يعمد الطفل . وإذا كان لا يزال « كنسيا طقسيا من النوع الشديد التزمت (٥٠) » . فإنه أقصي عن تناول القربان رجلا كريما اعترف بأنه من المنشقين ، وأبى أن يقرأ صلاة الجنازة على مستعمر لم ينكر مذهبه المنشق قبل موته ، وحرّم على النساء من رعيته أن يلبسن الملابس الغالية أو الحلّى الذهبية ، وأقنع الحاكم أن يحرم صيد السمك وقنص الحيوان فى يوم الأحد - وهو اليوم الوحيد الذى كان يتاح فيه لرعيته فراغ من الوقت للصيد أو القنص . وقد افتتن بصوفيا هوبكى ، ابنة أخت كبير قضاة سافانا البالغة من العمر ثمانية عشر ربيعا . ولكن أصحابه المورافيين لم يرضوا عنها . فلما سئمت تردده تزوجت رجلا يدعى ولكنسون . وحين تقدمت لتناول القربان أبى أن يناولها السر بحجة أنها لم تتناول سوى ثلاث مرات فى الشهور الثلاثة الاخيرة ، وأنها أهملت أن تطلب الى راعيها اذاعة اعلان زواجها . فرفع زوجها عليه الدعوى لتشهيره بخلق زوجته ، وأدانت المحكمة سلوكه وسلى خطيبيا وخدماته كاهنا ، فرفض الاعتراف بحقها فى محاكمته ، وتفاقم عدااء الشعب له ، ففر الى تشارلزتون واستقل سفينة الى انجلترا (٢٢ ديسمبر ١٧٣٧) .

وفى لندن استأنف تقشفاته أملا فى أن ترد اليه ثقته بنفسه ، ولكن بيتر بولر ، وكان واعظا مورافيا فى طريقه الى أمريكا ، أكد له أن ايمانه مازال ناقصا ، وأنه مهما كانت فضائله كاملة وتقواه وطقسيته حاريتين ، فسيظل فى حالة الهلاك الأبدى ، حتى يدرك - بومضة الهية من الاشراق واليقين ، مختلفة كل الاختلاف عن أى عملية استدلال عقلى - أن المسيح قد مات لأجله هو ، وأنه كفر عن خطايا هو ؛ فبعد هذا التغير دون سواه يكون الانسان فى مأمن من ارتكاب الخطايا وعلى ثقة من الخلاص . وقد خلد وسلى فى يوميته ذلك « اليوم المشهود » ٢٤ مايو ١٧٣٨ الذى وافته فيه هدايته النهائية ، قال :

« ذهبت فى المساء على مريض شديد الى جمعية فى شارع أولدرزجيت ، حيث كان أحدهم يقرأ مقدمة لوثر لرسالة بولس الى أهل رومية . وفى نحو التاسعة الا ربعا ، بينما كان يصف التغيير الذى يحدثه الله فى القلب بالايمان بالمسيح ، شعرت بقلبي يدفا على نحو عجيب . شعرت بأننى فعلا أثق بالمسيح ، والمسيح وحده ، للخلاص ، واعطيت تأكيدا بأنه نزع خطاياى ، خطاياى أنا ، وخلصنى من ناموس الخطية والموت . وبدأت أصلى بكل ما أوتيت من قوة لأجل أولئك الذين أساءوا الى واضطهدونى أشد من غيرهم . ثم شهدت علانية لجميع الحاضرين بما شعرت به الآن فى قلبى لأول مرة (٥١) » .

ويمكن القول بايجاز أنه لخص تطور المسيحية من الخلاص بالايمان والاعمال ، الى الخلاص بالايمان وحده (لوثر) ، الى الخلاص باسراق شخصي والهي (الكويكرز) . وعبر وسلى البحر الى المانيا فى صيف ١٧٣٨ وهو عارف بصنيع بولر ، وأنفق عدة أسابيع فى هرنوت ، القرية السكسونية التى أنشئت فيها مستعمرة للاخوة المورافيين على ضياع كونت زنزندورف .

وكان تشارلز وسلى خلال ذلك قد جاز بتغير مماثل عند عودته الى انجلترا ، وبدأ بطريقته الأكثر رقة فى وعظ المسجونين فى نيوجيت . والوعظ من كل منبر يسمح له بارتقائه ، وأهم حتى من هذا أن شخصية لا يبرزها قوة غير شخصية جون وسلى كانت فى طريقها الى الصدارة فى الحركة الميثودية ، وهى شخصية جورج هوايتفيلد . وقد ولد لصاحب نزل بجلوستر فى ١٧١٤ . وعمل سنة أو أكثر ساقى خمر لضيوف أبيه . ثم شق طريقه الى كلية بمبروك بأكسفورد ، وكان من الرعييل الأول فى « النادى المقدس » . وتبع الوسليين الى جورجيا فى ١٧٣٨ ولكنه عاد الى انجلترا فى خريف ذلك العام ليرسم قسيسا أنجليكانيا . واذ كان غير قانع بالفرص المتاحة له فى المناير ، تواقا لأن يبت الهام ايمانه فى جماهير الشعب ، فقد بدأ فى فبراير ١٧٣٩ ، فى الخلاص

قرب برستل ، وعظ عمال مناجم الفحم الذين ندر أن جرءوا على دخول كنيسة أو اهتموا بدخولها . وكان فى صوته من الوضوح والقوة ما مكنه من الوصول الى أسماع عشرين ألف مستمع ، وأثرت مقدرته الخطابية المشبوبة فى هؤلاء الرجال المتحجرين ، المرهقين ، تأثيرا جعله يرى (كما قال) « المسارب البيضاء التى أحدثتها دموعهم التى هطلت بغزارة على خدودهم السوداء (٥٢) » وأثارت خيال انجلترا سمعة الواعظ الجديد ، وأخبار عظاته فى الهواء الطلق . فكانت الحشود الهائلة تتجمع أينما ذهب لتستمع اليه .

ولم يكن وعظه بالشيء الذى ينسى . فهو لم يدع لنفسه تبحرا فى العلم ، ولكنه ادعى أنه يتكلم كلاما حميما مع الله (٥٣) . ويقول وسلى ان لغته كانت تميل الى « العداوة والحب » وانه يستعمل فيها بعض الأخيلة المذهلة ؛ من ذلك أنه كان يقول عن المسيح أنه « كالمشوى بغضب الآب ، ومن ثم يوصف بحق بأنه حمل الله (٥٤) » . وكما فعلت فى البرلمان كذلك فعل هوايتفيلد فى الحقول ، اذ استعان فى خطبه بفنون التمثيل ، فكان فى قدرته أن يبكى فى التو والساعة بكاء من الواضح أنه اقترن بعاطفة صادقة ؛ وكان فى قدرته أن يشعر سامعيه بالاحساس بالخطيئة ، ورهبة الجحيم ، ومحبة المسيح ، احساسا قويا فوريا . وقد اعترف بقوته الخطابى أمثال بولنبروك وتشسترفيلد ، والشكاك أمثال فرانكلين وهيوم ، والممثلون أمثال جاريك . واذ كان يلقي الترحيب أينما حل ، فانه جعل انجلترا ، وويلز ، واسكتلندا ، وارلندا ، وأمريكا ، أبرشيته . فتبر المحيط اى أمريكا ثلاث عشرة مرة ، واخترق اسكتلندا اثنتى عشرة مرة . ولم يكن غريبا عليه أن يعظ أربعين ساعة فى الاسبوع . فما بلغ الخمسين حتى حل به الارهاق ، وخفض برنامجيه بعد فترات الوقت الى « الحد الدقيق المسموح به » - اى أنه اكتفى بالوعظ مرة واحدة كل يوم من أيام الاسبوع ، وثلاث مرات فقط يوم الأحد . وفى ١٧٦٩ قام بزيارته السابعة للمستعمرات ، ومات فى نيوبريبورت بولاية ماساتشوستس فى العام التالى .

وحيث عاد جون ولسلى من هيرنوت ، لم يستطع أن يوافق تماما على طريقة هوايتفيلد الخطابية ، وتردد فى الاقتداء به فى الخطابة فى الخلاء . قال : « اذ كنت طوال حياتى (الى عهد قريب جدا) شديد التمسك بكل قواعد اللياقة والنظام ، . . . فقد كان المفروض أن أرى فى تخليص النفوس شيئا يكاد يبلغ مبلغ الخطيئة اذا لم يتم فى الكنيسة (٥٥) » . على أنه تغلب على نفوره هذا ، وحمل رسالتك الى الحقول والشوارع ، « وسلمت بأن أكون أكثر نزولا الى العمامة فى الخلاء » (ابريل ١٧٣٩) . وكانت خطابته أقل حرارة من خطابة هوايتفيلد ، ولغته لغة العالم والجنتمان ، ولكنه هو أيضا خاطب عواطف سامعيه ، وجعل الحياة اليومية لبسطاء الناس تبدو كأنها جزء من مسرحية هائلة ، نبيلة ، نفوسهم فيها ساحة معركة بين الشيطان واسيح ، فتحركوا معه فى عالم من العجائب والمعجزات ، وسمعوا فيه (أى فى ولسلى) - كما زعم - صوت الله . وبينما ألف هوايتفيلد أن يعظ الجمع ثم ينصرف عنه ، راح ولسلى ينظم أتباعه فى « جماعات صغيرة » فى المدينة تلو المدينة ، ويرشدهم الى الثبات والاستمرار . وكانت اجتماعاتهم احياء للقاءات المحبة التى استنبتها المسيحيون الأولون - أعياد من الفرحة الدينية ومحبة الجماعة ، يعترف بعضهم لبعض بخطاياهم ، ويخضعون لفحص حياتهم الخلقية ، ويشتركون فى الصلاة وترتيل التراتيل الورعة . وكان جون قد ألف أو ترجم بعض الترانيم المؤثرة ، وكان تشارلز قد بدأ مجموعة تراتيله الضخمة . وفى ١٧٤٠ كتب تشارلز أشهر ترانيمه الرائعة الكثيرة « يسوع يا حبيب روحى » .

فى هذه الجماعات المتحمسة درب جون ولسلى وعاظا علمانيين حملوا البشارة الجديدة الى حيث لا يستطيع القادة البقاء . فقد انتشر هؤلاء « المساعدون » - دون رسامة ، ودون أى أبرشيات محددة ، بمنبر أو بغير منبر - فى أرجاء إنجلترا ، واسكتلندا ، وويلز ، وأوصلوا مخاوف وآمال اللاهوت البروتستنتى للطبقات العاملة ، وحضروا للزيارات الانعاشية التى سيقوم بها ولسلى وهوايتفيلد . وكان

وسلى نفسه يسافر - الى أقصى أركان انجلترا راكبا جوادا أو مركبة أو راجلا - وكثيرا ما كان يقطع ستين ميلا فى اليوم ، وبلغ متوسط ما قطعه أربعة آلاف ميل فى السنة على مدى أربعين عاما . وكان يعظ فى كل فرصة . فى السجون للمسجونين ، وفى المركبات لرفاقه الركاب ، وفى الفنادق للمسافرين ، وفى السفن العابرة البحر الى ايرلندا أو من ثغر الى ثغر . وفى ايبويرت ، حين منح من الوقوف على منبر أبيه ، وعظ فى فناء الكنيسة واقفا فوق قبر أبيه .

فماذا كان يعظ ؟ العقيدة البيورتانية أساسا ، تلك التى خيل للناس أن الفوضى الخلقية التى صاحبت عودة الملكية الاستيوارتية عصفت بها عصفا مميتا . لقد رفض الجبرية (التى قبلها هوايتفليد) ، وأصر على ما دان به الجناح الأرمذىوسى من الكنيسة الرسمية ، وهو أن للانسان من حرية الارادة ما يكفيه لتقرير ما يختاره أو يرفضه من النعمة الالهية . ورفض كل لجوء الى العقل ، وأحس أن الدين يصل الى أبعد مما يصل اليه المنطق الذى صنعه الانسان ، وأنه يعتمد على الوحي الالهى والاعتناع الباطن ، ولكنه ابتعد عن الصوفية بحجة أنها تترك كل شيء لله ولا تحفز الانسان الى التقوى النشيطة . وشارك طبقته وزمانه معظم خرافاتهما : فكان يؤمن بالاشباح ، وبالأصل الشيطانى للأصوات الغريبة ، وبحقيقة السحر واجرامه ؛ وقال ان التخلّى عن الايمان بوجود السحر معناه التخلّى عن الايمان بالكتاب المقدس . ولم يساوره شك فى المعجزات ، وذهب الى أنها تحدث كل يوم بين أتباعه . فكان الصداغ ، أو الورم المؤلم ، أو الفتق الشديد ، أو الساق المكسورة ، تشفى بصلواته أو صلوات الجماعة المثودية ؛ وحكى عن فتاة كاثوليكية كانت تفقد بصرها كلما قرأت كتاب القداس الكاثولىكى ، ولكنها تستعيده دائما حين تقرأ العهد الجديد . وقد قبل روايات النساء اللاتى زعن أنهن رأين الملائكة أو المسيح أو الجنة أو النار ، وسجل فى يوميته عددا من الحالات التى عوقب فيها خصوم المثودية بعقوبات خارقة (٥٦) .

وقد بلغ وعظه من الحيوية مبلغا أفضى بالكثيرين من جمهوره الى الهستريا والتشنجات . وتنبئنا اليومية عن خطاة غلبهم الألم البدنى بعد سماعه فراحوا يتقلبون على الارض من فرط العذاب ، بينما ركع مؤمنون آخرون الى جوارهم وصلوا لخلصهم من مس الشيطان (٥٧) . ويصف ولسلى اجتماعا فى شارع بلدوين بلندن فى ١٧٣٩ فنقول :

« لم يكد صوتى يسمع وسط أنين البعض وصراخ الآخرين . . . وساء كويكريا واقفا يتفرج . . . أن يسقط هو نفسه على الأرض كأنه المصعوق . وكان الكرب الذى يعانيه رهيبا حتى لمن يشهده . وقد تضرعنا الى الله ألا يؤاخذة بالحماسة والجهل ، وسرعان ما رفع رأسه وصاح « الآن أعرف أنك نبي من أنبياء الرب (٥٨) » .

ويصف شاهد عيان نقل عنه ولسلى اجتماعا للمثوديين بافرتن فى ١٧٥٩ كما يلى :

« كان بعضهم يصرخون ، وبعضهم يجارون . . . وأكثر ما سمع كان شهيقا عاليا كذلك الذى يصدر عن قوم نصف مخنوقين يلهثون طلبا للحياة ؛ أن الصيحات كلها تقريبا كانت كصيحات مخلوقات آدمية تعالج سكرات الموت الأليم . وكان الكثيرون يبكون دون ضجيج ، وغيرهم سقطوا كالأموات . . . ووقفت على مقعد كما فعل شاب فى المقعد المقابل ، وكان ريفيا قويا نضرا صحيح البدن ، ولكن حين بدا أنه لم يخطر له شيء آخر خر على الأرض فى عنف لا يتصوره الانسان . . . وسمعت خبط أقدامه يكاد يحطم الألواح الخشبية وهو راقد يتشنج تشنجات شديدة فى أسفل المقعد . . . وأكثر الذين وضع الله عليهم يده احمرت وجوههم احمرارا شديدا أو كادت تسود . . . وسقط وراءه على الجدار رجل غريب حسن الهندام كان يقف أمامى ، ثم خر على ركبتيه وهو يعصر يديه ويهدر كالثور . . . ثم قام وراح يخبط الحائط حتى أمسك به مستر كبلنج ورجل آخر . وصرخ قائلا « أواه ماذا أصنع ، ماذا أصنع ؟ أواه ، لبيت لى قطرة واحدة من دم المسيح ! » وبينما كان يتكلم حرر الله روحه ، فعلم أن خطاياہ مَحِيَت ، وبدا أن نشوة الفرحة التى غمرته أعظم من أن تحتملها الطبيعة البشرية (٥٩) » .

ولعل هذه التفجرات الهستيرية سببتها أحوال أثرت فى الضحايا قبل الاجتماع المئودى ، فجاءت كعظة عن نار الجحيم وكانت مجرد تقويج لذروة لا يمكن السيطرة عليها . أما وسلى فقد فسر هذه التشنجات بأنها مس شيطانى أعقبه شفاء الهى . وذهب الى أنها أحيانا لم تأت باصلاح دائم للسلوك أو الخلق ، ولكنه أحس بأنها فى كثير من الحالات طهرت النفس من الخطيئة وافتتحت حياة جديدة .

وقد حققت المئودية أعظم نجاح لها بين الفقراء . فقد كان الوعاظ أنفسهم رجالا ذوى ثقافة متواضعة ، بسطاء فى مشاعرهم وحديثهم ، ولم يقم حاجز طبقى أو ثقافى بينهم وبين جمهورهم . وقد حملوا رسالتهم ، رسالة الخطيئة والتوبة ، الى الفلاحين وعمال المناجم والمجرمين ؛ ومع أنهم بشرىوا بايمان قام على الخوف أكثر مما قام على المحبة ، فانهم أعطوا غير المتعلمين ناموسا أخلاقيا شارك بنصيب فى رد اعتبار الأخلاق الى انجلترا فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر . هذه الأخلاق البيورتانية هى التى انتقض عليها عصرنا انتقاضا متطرفا . لقد كان وسلى عدوا لكل الوان الترفيه تقريبا . صحيح انه سمح بلعب الورق ، ولكنه رأى أن من الاثم الذهاب الى المهرجانات ، ولبس الحلى أو الملابس الغالية ، والاختلاف الى المسرح أو المرقص . ولم يخصص أى وقت للعب فى المدرسة التى انتسها فى كنجروود ، لان « من يلعب وهو طفل سوف يلعب وهو رجل (٦٠) » . ولكن الأخلاق البيورتانية انسجمت مع الخلق الانجليزى ، واستطاع أن يتحملها الرجال الأشداء والنساء الصبوريات ، وقد منحت الطبقات العاملة الانجليزية احساسا فخورا بالاختيار سندها هى الفقر وجعلها عدوا لآى ثورة تتشكك فى المسيحية . وأحس المحافظون بعد حين بعرفان الجميل لوسلى لأنه انقذ الفقراء البريطانيين من الربوبية والالحاد ، وحوّل تطلعاتهم من الثورة الاجتماعية الى الخلاص الفردى ، ومن عالم مثالى على هذه الارض الى فردوس بعد الممات (٦١) .

وكان وسلى نفسه يميل الى المحافظة فى السياسة . وقد تقدم طبقته فى المطالبة ببعض الاصلاحات التى طال تأخرها : فندد بنظام « الدوائر العفنة » ، وبتفاوت التمثيل النيابى فى البرلمان ، وبفساد

السياسة الانجليزية الصارخ ، وبوحشية الرق ، وبأهوال السجون البريطانية . ولكنه تقبل الهيكل الطبقي للمجتمع باعتباره طبيعيا وعادلا ، وعارض أى انفراج فى القوانين الموجهة ضد الكاثوليك ، وكانت ميوله كلها مع جورج الثالث فى ثورة المستعمرات الأمريكية .

وقد ظل أنجليكانيا بالعقيدة ، ولكنه رفض الرأى الأنجليكانى القائل بأن رسامة القسيس لا تكون قانونية الا على يد أسقف فى سلسلة الاساقفة الرسوليين ؛ ورسم هو بنفسه قساوسة لاسكتلنדה وأمريكا . وحين قال « ان العالم أبرشيتى (٦٢) » كان يقصد أنه سيعظ حيثما شاء ، دون اذن أو تعيين أسقفى ، والى هذا الحد كان انشاقه على الكنيسة الرسمية . ولكنه حض أتباعه على حضور الخدمات الأنجليكانية ، وتجنب الاجتماعات والعقائد المنشقة على هذه الكنيسة ، والامتناع عن مخاصمة الاكليروس الأنجليكانى . وفتحت أول الأمر بعض المنابر الأنجليكانية للقساوسة المثوديين ، ولكن حين اتخذ وعاظ وصى العلمانيون لأنفسهم حق مناولة القربان ، وارتدت العقيدة المثودية الى توكيد العصر الوسيط على الجحيم والانشغال البيورتنى بالخطيئة ، سحب الكهنة الأنجليكانيون تأييدهم ، تماما كما انسحب ارزم من لوثر ، وآنروا تطورا منظما ، وأقصوا المثوديين عن المنابر الأنجليكانية .

وكان الاضطهاد الذى ابتلى به المذهب الجديد على يد الكنيسة الرسمية اقل كثيرا من ذلك الذى جاءه من العامة البسطاء الذين لم يطبقوا الطرق الجديدة فى التبشير بالافكار القديمة . وفى المدينة بعد المدينة هوجم وعاظ الهواء الطلق - كما سيهاجم نظراؤهم اللاحقون الذين سيبشرون بانجيل اجتماعى جديد - من غوغاء أسعدهم أن يكونوا قساة دون خوف ولا لوم . وفى مونتموث ضرب واعظ علمانى على رأسه بصخرة فمات من الضربة . وفى ودنزبرى حطم جمع بيوت المثوديين ، وأذى نساءهم ، وضرب رجالهم . فلما ظهر وصى طالب الجميع بدمه ، ووصف للذين ضربوه بالهراوات ، وصى هو بصوت عال ، فأطلق الجمع سراحه . وفى بولتن أغار جمع غاضب على البيت الذى كان يعظ فيه ، وواصل هو عظته الى النهاية وسط وابل من الحجارة والبلاط والبيض . وفى ديفيزيه صوبت ظلمبة مائية على مسكن تشارلز وصى ، وأطلقت الكلاب البولدوج على

أتباعه • وفى اكستر رُجم هو ايتفيلد حتى كاد يلقى حتفه • وفى هوكستن
دفع ثور بمهماز الى محفل مثودى ، وفى بنسفورد سيق عجل هاجه
تحريش الكلاب به الى المائدة التى كان جون وسلى يعظ عندها • وراقت
شجاعة الوعاظ الخلق الانجليزى ، واكسبتهم التسامح والتأييد •

كان وسلى رجلا قصير القامة ، طوله خمسة أقدام وثلاث بوصات ،
ووزنه ١٢٨ رطلا • وكان فى شيخوخته يقح من نفوس ناظريه وقعا طبيبا
بشعره الأبيض ، ولكنه كان من قبل فى كهولته يسترعى الاهتمام بقسماته
الدقيقة المتقشفة وعينيه المسيطرتين • وكان من القضايا المسلمة عنده أنه
خلق ليحكم ؛ ووضع نشاطه العصبى وقوته الذهنية فى مكان الزعامة
بحكم الطبيعة ، واشتطت به أحيانا ثقته بنفسه ثقة لا يتشكك فيها الى
اعتداد بالنفس ، رأى فيه أسقف مثودى « غطرسة » شديدة (٦٣) •
ولم يكن بالرجل الذى يسهل الانسجام معه ، لأنه كان يفكر ويتحرك
بسرعة لا يستطيع الآخرون أن يجاروه فيها • وتزوج فى ١٧٥١ ، بعد
أن أحب كما نحب كلنا الممرضة التى اعتنت به فى مرضه • وسافرت
معه زوجته فى جولاته المحمومة طوال عامين ، ثم انهارت صحتها
وأعصابها فتركته كما يقفز انسان من فوق ظهر حصان جموح • وكان
يعزو الفضل فى صحته وحيويته لرحلاته المتصلة راكبا أو راجلا ،
وقد نضيف أن الخطابة رياضة تهوى الرئتين • وفى ١٧٣٥ أصبح
نباتيا ، وبعد عام قرر هو وصديق له أن يعيشا على الخبز القفار دون
غيره ، وأن « يجربا امكان الحياة بلون واحد من الطعام كما هى ممكنة
بمختلف ألوانه ... ولم نكن أشد قوة وعافية منا حين لم نذق طعاما
آخر (٦٤) » ، ولكنهما سرعان ما انتكسا الى التنويع فى الطعام •

ماذا كانت نتائج الوعظ المثودى ؟ فى جيل واحد أصبح الدين ،
الذى لاح من قبل أنه يموت من أثر الوقار الأنجليكاني والشكوك الربوبية
عنصرا مدويا فى الحياة الانجليزية ، لا يعلو عليه الا السياسة والحرب •
فلما مات وسلى (١٧٩١) كان أتباعه يعدون ٧٩٠٠٠ فى انجلترا ،
٤٠٠٠ فى أمريكا الشمالية ، وفى ١٩٥٧ كان هناك ٢٥٠٠٠٠ ر٢٥٠٠
مثودى فى بريطانيا العظمى ، و ١٢٠٠٠٠ فى الولايات المتحدة
و ٤٠٠٠٠ فى العالم (٦٥) • فضلا عن تكاثر أتباع المذهب كان

له تأثير فى المذاهب الأخرى ؛ مثال ذلك ما حدث فى الكنيسة الانجليكانية التى رفضت الميثودية ، اذ بعثت المثل الميثودية العليا الحركة « الانجيلية » فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر ، ولعلها دخلت فى حركة اكسفورد فى القرن التاسع عشر . أما من الناحية السياسية فان النتائج كانت استسلاما محافظا بين الطبقات العاملة حتى ١٨٤٨ . وأما من الناحية الخلقية فان الميثودية حسنت السلوك الشخصى والحياة العائلية بين الفقراء وشاركت فى تقليل الفساد الانتخابى والرسمى ، وأخزت الكثيرين من طبقة السادة فأقلعوا عن الطيش والرذيلة ، وهيات لنفور الانجليز من تجارة الرقيق . وأما من الناحية الثقافية فان الحركة كانت سلبية . لقد أعطت الشعب ترانيم مقدسة ، ولكنها واصلت العداوة البيورتانى للفن . وأما من الناحية الفكرية فانها كانت خطوة الى الوراء فقد أرست عقيدتها على الخوف ، وشعائرها على العاطفة ، وأدانت العقل بوصفه فخا للانسان . وفى الصراع الكبير بين الايمان والعقل علقت كل آمالها على الايمان ، ولم تضع أى ثقة فى تقدم المعرفة والعلم ، وتجاهلت أو احتقرت « التنوير » الذى أخذ يشعل النار فى فرنسا . وشعرت أن هدف الحياة ومعناها الوحيد هو الهروب من الهلاك الأبدى ، وأن الشيء الوحيد المطلوب لهذه الغاية هو لايمان بالموت الفادى الذى مات به المسيح .

وفى يناير ١٧٩٠ ، حين بلغ وسلى السادسة والثمانين ، كتب فى يومياته يقول « بتّ الآن شيئا متهدما من رأسى الى قدمى . عيناي معتمتان ، ويمناي تهتز بشدة ، وفمى ساخن جاف كل صباح ، وتنتابنى حمى طويلة كل يوم تقريبا . ولكنى بفضل الله لا أخفق من جهدى . ففى استطاعتى أن أعظ وأكتب الى الآن (٦٦) » . وبعد شهرين بدأ جولة خطابية اتصلت خمسة أشهر وجابت به أرجاء انجلترا واسكتلندا . وقضى نحبه فى العام التالى (٢ مارس ١٧٩١) . ولو حكمنا على عظمة الأفراد بمدى تأثيرهم لقلنا انه - باستثناء بت - كان أعظم الانجليز فى زمانه .

٥ - فى النحل والبشر

هناك شخصيتان أقل شأنا توقفنا فى طريقنا الى ديفد هيوم . أولهما برنارد ماندفيل ، وكان طبيبا لندنيا من أصل فرنسي ومولد هولندي ، نشر فى ١٧٠٥ كراسة فى عشر صفحات تباع بست بنسات ، مكتوبة بشعر مرح عنوانها « الخلية المتدمرة » . وموضوعها مفارقة مؤداها أن رخاء الخلية راجع الى رذائل أفرادها من النحل - الى جشعها الأنانى ونشوتها التناسلية ومشاكستها الجماعية . وبتطبيق هذا التناقض على الخلية الانسانية ، ذهب الطبيب الخبيث الى أن ثروة الدولة وقوتها لا تعتمدان على فضائل مواطنيها بل على الرذائل التى يندد بها الأخلاقيون المتدمرون بحماقة . فلنتصور ما يحدث لو كفت فجأة كل ضروب حب التملك والغرور والخيانة والمشغبة - لو لم يأكل الرجال والنساء من الطعام الا بقدر ما يحتاجون اليه ، ولم يلبسوا من الثياب الا ما يقيهم القر والحر ، ولم يغشوا أو يؤذوا بعضهم بعضا ، ولم يتشاجروا ، وأدوا ديونهم دائما ، واحتقروا أسباب الترف ، وكانوا أوفياء لأزواجهم . لو حدث هذا لتوقف المجتمع كله فجأة ، فترى المحامين يتضورون جوعا ، والقضاة يتركون بغير قضايا أو رشا ، والأطباء يذوون لانعدام المرضى ، وزراع الكروم يفلسون ، والحانات تغلق أبوابها لانعدام شاربي الخمر ، وملايين الصناع المهرة الذين ينتجون الغريب من الأطعمة أو الحلى أو الملابس أو البيوت يتعطلون ؛ ولن يرغب أحد فى أن يكون جنديا ؛ وما يلبث المجتمع أن يقهر ويستعبد .

وعطل تأثير الخلية المتدمرة صياغتها فى شعر هزلى محطم الوزن ، وغاظ هذا الطبيب المغرور ، الجشع ، المشاغب ، فأعاد اصدارها ثانية فى ١٧١٤ ، وثالثة فى ١٧٢٣ ، باسم « خرافة النحل » موسعا أياها المرة بعد المرة بالمقدمات ، والملاحظات ، والتعليقات التى بلغت بالصفحات العشر مجلدين . وأصغت انجلترا وفرنسا هذه المرة ، لأن هذه الملاحق كانت من أقذع ما كتب من تحليلات للطبيعة البشرية .

واتخذ ماندفيل من ايرل شافتسبرى الثالث هدفا رئيسيا لكتابه بكل معنى الهدف . ذلك أن الأيرل كان قد فسر الطبيعة البشرية ببلاغة

متفائلة ، فافترض فى الانسان « احساسا باطنيا بالصواب والخطأ . . . فطريا فينا كالمحبة الفطرية ، وهو مبدأ أول فى كياننا » . ورد ماندفيل على هذا بأنه هراء بديع ؛ فالطبيعة البشرية قبل التربية والتدريب الخلقى لا تميز بين الفضيلة والرذيلة ، انما تحكمها المصالح الذاتية دون غيرها . وقد وافق اللاهوتيين على أن الانسان بطبيعته « شرير » (متمرّد على القانون) ، ولكنه بدلا من أن يهدد الناس بالجحيم ، هناهم على الملازمة البارعة بين رذيلة الفرد وخير المجتمع . فالبغاء السرى مثلا يحمى العفة العامة ، والنهم للانتاج والخدمات يحفز الاختراع ، ويدعم الصناعة والتجارة ؛ والثروات الكبيرة تتيح البر بالناس والفن الضخم . وبينما بشر اللاهوتيون بالتقشف ، دافع ماندفيل عن الترف ، وحجته أن الرغبة فى الكماليات (وهى أى شيء خلاف الضروريات المجردة للحياة) هى أصل الصناعة والحضارة ؛ فلو أزلنا الترف كله عدنا همجا . وبينما يفترض فى الأخلاقيين أن يدينوا الحرب قال ماندفيل ان الأمم عاشت بفضل قدرتها على شن الحرب ، لأن معظم الدول وحوش ضارية .

ولم ير فى الطبيعة أى فضيلة . فالخير والشر كلمتان تصدقان على الأفعال الاجتماعية أو المعادية لمصلحة المجتمع فى الانسان ، أما الطبيعة نفسها فلا تابه بكلماتنا أو عطاتنا ، وهى تحدد الفضيلة بأنها أى صفة تعين على البقاء ؛ وعالم الطبيعة فى عباراتنا المتحيزة مسرح للجشع والشهوة والقسوة والقتل والتبديد الذى لا معنى له . ومع ذلك فمن ذلك الصراع الرهيب ، كما يقول ماندفيل ، طور الانسان اللغة والنظام الاجتماعى والنواميس الأخلاقية أدوات للتماسك الاجتماعى وبقاء المجتمع . والثناء واللوم لا تبررهما الطبيعة ، ولكنهما مبرران باعتبارهما وسائل نستعين بها - لأنها تروق غرور الانسان وخوفه وكبريائه ، - على ان نشجع فى غيرنا ألوانا من العمل مفيدة لنا أو للجماعة .

ومعظم الذين سمعوا بماندفيل رموه بالنزعة المادية الكلبية ، ولكن فولتير اتفق معه على نفع الكماليات ، وصفق فزيوقراطيو فرنسا القائلون بسياسة « عدم التدخل » لرأيه فى أن عدم التدخل فى طمع الانسان

كفيل بأن يجعل عجالات الصناعة تدور . وأغلب الظن أن الطبيب الكثير النزوات كان مسلما بأن مفارقتة هذه ، « الرذائل الخاصة هي فضائل عامة » كانت الى حد كبير لعبا بألفاظ فضفاضة التعريف . ان « الرذائل » كحب الاقتناء ، والعشق الجنسي ، والمشغبة ، والكبرياء ، كانت يوما ما « فضائل » فى الصراع البدائى للبقاء . ولم تصبح رذائل الا حين مورست فى المجتمع ممارسة تجاوزت الخير الاجتماعى ؛ وقد أصبحت منافع عامة بفضل التحكم فيها بالتعليم ، والرأى العام ، والدين ، والقانون .

وشتان بين فرانسس هتشنس وبين هذا الطبيب المفترى . وقد ولد هتشنس فى ارلندة لقس مشيخى ، ثم انحرف عن جادة أبيه وفتح معهدا خاصا فى دبلن . واذ كان شديد الوعى بالتزامه بأن يجعل من المتوحشين الصغار مواطنين ، فقد كتب من معهده « تحقيقا فى الخير والشر الأخلاقيين » (١٧٢٥) عرّف فيه المواطن الصالح بأنه ذلك الذى يعزّز الخير العام ، ووصف فيه الخير العام (بعبارة سبقت بحذافيرها صيغة بنتام فى مذهب المنفعة) فقال انه « أعظم سعادة لأكبر عدد من الناس (٦٩) » فلما رقى الى كرسي الفلسفة الأخلاقية فى جامعة جلاسجو ، أزعج المشيخين بدفاعه عن حق الفرد فى اصدار حكمه على الأشياء ، وعن مشروعية اللذة ، وعن « الفنون الابداعية كالموسيقى والنحت والتصوير ، وحتى الملاهى الرجولية » (٧٠) ، ولم يشارك ماندفيل فكرته المتشائمة عن الطبيعة البشرية . وقد سلم بأخطاء الناس وذنوبهم ، وبشهواتهم الجامحة وجرائمهم العنيفة ، « ولكن الجانب الأكبر من حياتهم يستخدم فى القيام بمهام من المودة الطبيعية ، أو الصداقة ، أو حب الذات البريء ، أو حب الوطن » . ثم أضاف تحذيرا نافعا للمؤرخين فقال :

« ان الناس ميالون الى اطلاق العنان لخيالاتهم فى أمر جميع ما سمعوا عنه أو قرعوا فى التاريخ من سرقات ، وقرصنات ، وجرائم قتل ، وإيمان كاذبة ، وتزويرات ، ومذابح ، واغتيالات ، فيستنتجون من هذا كله أن النوع الانسانى كله شرير جدا ، وكان دار القضاء هى المكان الصحيح لتقييم أخلاق البشر ، أو المستشفى لتقييم ملاءمة المناخ

للصحة . أفلا يجدر بهم أن يروا أن عدد المواطنين والمزارعين الشرفاء يفوق كثيرا عدد كل أنواع المجرمين فى أى دولة ٠٠٠ وأن ندرة الجرائم بالقياس الى الأفعال البريئة أو الخيرة هى التى تلفت انتباهنا لها ، وتبعث على تسجيلها فى التاريخ ، فى حين تغفل أفعال شريفة سمحة مألوفة ، تفوقها بما لا يقاس ، لا لشيء الا لأنها عادية جدا ؛ وما أشبه هذا بخطر جسيم واحد ، أو شهر يقضى فى المرض ، فيصبح قصة تتردد كثيرا ، خلال حياة طويلة من الصحة والسلامة » .
ذلك عقل سليم !

٦ - ديفد هيوم : ١٧١١ - ٧٦

أ - الفيلسوف الشاب

كان هتشن جزءا متواضعا من حركة « التنوير الاسكتلندى » ، أما هيوم فكان ألمع كواكبها . وهو يروى لنا فى ترجمته الذاتية البسيطة ، ذات الصفحات الست ، أنه ولد بأدنبره فى ٢٦ أبريل ١٧١١ ، « لأسرة طيبة أبا وأما ، فأسرة أبى فرع من ايرل Home أو Hume* وكانت أمى ابنة السر ديفد فوكنر عميد كلية الحقوق » . ومات الأب فى ١٧١٢ ، تاركا ممتلكاته لشقيق ديفد الأكبر ، جون هيوم ، ولديفد دخلا يبلغ ثمانين جنيها فى السنة - يكفى لمعيشة متقشفة . أما الأسرة التى كانت كلها تدين بالمذهب المشيخى ، فقد أشربت الصبى اللاهوت الكلفنى اشرابا قويا تخلف على شكل الحتمية فى فلسفة ديفد . كان فى بكرة كل أحد يختلف الى صلاة فى الكنيسة تتصل ثلاث ساعات ، منها ساعتان من الوعظ ؛ ثم يعود عشية كل أحد الى الكنيسة ساعة ؛ يضاف الى هذا صلوات الصباح فى البيت (٧٢) . ولم يكن مندوحة من أن ينتقض ديفد على هذا كله بالانحراف الى الهرطقة ما دام فيه ذرة من صلابة الخلق .

وحين بلغ الثانية عشرة دخل جامعة أدنبره . ثم تركها بعد ثلاث

★ كان سليل لذلك الايرل رئيس وزراء لبريطانيا العظمى فى ١٩٦٤ . والاسم Home كان ومازال يلفظ Hume « هيوم » .

سنوات دون درجة ، عازما على أن يفرغ بكليته للأدب والفلسفة . وفى السادسة عشرة كتب الى صديق يلوم نفسه

« لأن سلامى العقلى لا تدعمه الفلسفة دعما يكفى للثبات للطمات القدر . فعظمة النفس وسموها هذا لا سبيل اليه الا فى الدرس والتأمل فاسمح لى بان أتكلم هكذا كفيلسوف ، فذلك موضوع أطويل التفكير فيه ولا يعينى الحديث فيه اليوم كله (٧٣) » .

وسرعان ما تبخر ايمانه الدينى :

« وجدت ضربا من جرأة الطبع يملكنى ، وهى جرأة لا تميل الى الخضوع لآى سلطة فى هذين الموضوعين (الفلسفة والأدب) . . . فلما ناهزت الثامنة عشرة بدا كأنه قد انفتح أمامى مشهد جديد من الفكرة ، أطربنى منتهى الطرب ، وحملنى بحماسة الشباب الطبيعية على أن أنبذ كل لذة أو شغل آخر لأعكف عليه العكوف كله (٧٤) » .

وقال فى فترة لاحقة أنه « لم يشعر بأى ايمان بالدين منذ بدأ قراءة لوك وكلاارك (٧٥) » . فما ان بلغ السابعة عشرة حتى كان قد خطط لرسالة فى الفلسفة .

والح عليه أقرباؤه فى أن الفلسفة وثمانين جنيها فى العام لن يتيحا له سوى عيش ضئيل ، وأن عليه ان يقنع بضرورة التكسب . فهل فى استطاعته أن يدرس القانون ؟ وحاول ذلك طوال ثلاث سنوات مؤلة (١٧٢٦ - ٢٩) . وانهارت صحته ، وأوشكت روحه أيضا أن تنهار ، وفقد اهتمامه بالأفكار فترة . « رأيت دراسة القانون شيئا يثير فى « الغثيان » (٧٦) ، فطلقها ، وعاد الى الفلسفة ، ربما باتحراف واحد . وفى أواخر فبراير ١٧٣٤ رحل عن ادنبرة الى لندن « لأبذل محاولة هزيلة جدا لولوج مجال من الحياة أكثر نشاطا (٧٧) » . وفى ٥ مارس مثلت آجنس جلبريث أمام القس جورج هيوم (عم ديفد) واعترفت بأنها حبلى . فلما جىء بها أمام جلسة لمجلس الكنيسة المشيخية صرحت بان « المستر ديفد هيوم . . . هو أبو الطفل » وارتاب المجلس فى صدقها فأحالها الى الاجتماع التالى للمجلس المشيخى

المحلى ؛ وأمام هذا المجلس فى ٢٥ يونيو ، كررت التهمة . وقد جاء فى محضر مجلس تشيرنسايد :

« ان رئيس الجلسة ... ناشدها ان تقول الصدق وتعترف هل اذنب معها شخص آخر ... وبعد ان نظر المجلس فى الأمر ، وأحيط أعضاؤه علما بأن ديفد هيوم المذكور خرج من المملكة ، أحالوها الى دائرة مجلس تشيرنسايد امثالا لقواعد الكنيسة (٧٨) » .

وهذا يتطلب مثولها فى المسرح أمام الكنيسة وعرضها فى المشهرة ثلاثة آحاد . وفى ١٧٣٩ أديننت آجنيس مرة أخرى بالزنا .

ومضى هيوم الى برستل بعد ان توقف فى لندن ، واشتغل فى مكتب تاجر « ولم تمض على شهور حتى وجدت ذلك الجو لا يلائمنى اطلاقا » فعبر البحر الى فرنسا ، حيث المعيشة أرخص منها فى انجلترا . ومكث فترة فى رانس ، ثم رحل الى لافليش (على نحو ١٥٠ ميلا جنوب غربى باريس) ، لأن كلية اليسوعيين فيها كانت تملك مكتبة كبيرة ، واتصل الاسكتلندى المدير اتصالا وديا بالكهنة فسمحوا له باستعمال كتبهم . وقد وصفه أحد الآباء فى نظرة لاحقة بأنه « كان شديد الاعتداد بنفسه ... فى روحه حيوية أكثر مما فيها من التماسك وفى خياله توقد أكثر مما فيه من العمق ، وقلبه أشد انغماسا فى الأشياء المادية والعجب الروحى من أن يتغلغل الى الخفايا المقدسة للحقائق الالهية (٧٩) » .

وفى ظل اليسوعيين ألف هيوم أول جزئين من رائعته الشكوكية « رسالة فى الطبيعة البشرية » . وفى سبتمبر ١٧٣٧ ، عاد الى انجلترا مثقلا بمخطوطته . وقد لقي عنقا مع الناشرين ، لأنه كتب فى ديسمبر الى هنرى هيوم يقول : « اننى الآن أجب كتابى ، أى اقتطع منه اجزاءه الممتازة ، محاولا أن اقلل ما استطعت من ايدائه لشعور الناس (٨٠) » . وكان أهم ما حذف منه « مناقشات حول المعجزات » فنحاهما لاستعمالها فى أوقات أسلم . أما الباقي ، الذى ضمن أنه يدق على أفهام المتشبهين بالقديم ، فقد نشره جون نون اللندنى غفلا من اسم المؤلف فى مجلدين فى يناير ١٧٣٩ . وباع هيوم المجلدين اجمالا

بخمسين جنيها واثنتي عشرة نسخة - وهى صفقة ليست خاسرة جدا بالنسبة لكتاب فى المنطق ونظرية المعرفة بقلم شاب مغمور فى السابعة والعشرين . على أنه كان قمة من قمم الفلسفة الحديثة .

ب - الغض من شأن العقل

كشفت « الاعلان » الذى تصدر الكتاب عن ثقة هيوم فى قدراته . فقد قال فيه انه يستهدف دراسة الطبيعة البشرية من حيث الفهم والانفعالات ، ثم فى مجلد ثالث قادم من حيث الاخلاق والسياسة . وشرع فى تحليل « الانطباع » (الاحساس) ، والادراك الحسى ، والذاكرة ، والخيال ، والفكر ، والعقل ، والاعتقاد . وهذا البحث فى كيفية وصولنا الى أن « نعرف » بحث أساسى ، لأن صحة العلم والفلسفة والدين والتاريخ تتوقف على طبيعة المعرفة ، وأصلها ، وامكان وثوقنا بها . وهو فرع من الدراسة عسير ، لأنه يتناول الأفكار المجردة لا الأشياء المحسوسة ، والفكر آخر شيء يحاول الفكر أن يفهمه .

وبدأ هيوم بقبوله تجريبية لوك نقطة انطلاق لبحثه ، فكل الأفكار مستقاة فى النهاية من التجربة بطريق الانطباعات . وهذه اما أحاسيس خارجية كالضوء والصوت والحرارة والضغط والروائح والذوق ؛ واما داخلية كالخدر والجوع واللذة والألم . والادراك الحسى احساس مفسر ؛ « فالضوضاء » احساس ، ولكن « نقرة على الباب » ادراك حسى (وهيوم ليس دقيقا أو ثابتا دائما فى استعماله هذين المصطلحين) . والمولود أعمى أو أصم ليس لديه « فكرة » عن الضوء أو الصوت ، لأنه لم يكن لديه احساس بأحدهما . وفكرتا المكان والزمان نابتان من التجربة ، فالأولى « فكرة نقاط مرئية أو محسوسة موزعة بنظام معين » ، والثانية ادراك التعاقب فى انطباعاتنا (٨١) ولا تختلف الأفكار عن الانطباعات الا فى ضعف « القوة والحيوية التى تقع بهما على الذهن (٨٢) » . والاعتقاد « ليس الا فهما أكثر حيوية وحدة لأى فكرة . . . انه شيء يشعر به الذهن ، يميز أفكار الحكم عن خرافات الخيال (٨٣) » .

ويبدو أن هيوم فى تعريفاته هذه يرى فى « الذهن » كيانا أو أداة

حقيقية تمارس الانطباعات أو الأفكار ، أو تمتلكها ، أو تتذكرها ، أو تحكم عليها . على انه اذ يمضي فى البحث ينكر وجود أى ذهن ملحق بالحالات النفسية - الاحساس ، أو الادراك الحسى ، أو الفكرة ، أو الشعور ، أو الرغبة التى تشغل الوعى فى لحظة بعينها يقول :

« ان ما نسميه «الذهن» ليس الا كومة أو مجموعة من مختلف الادراكات الحسية توحدت معا بشتى الارتباطات ، ويفترض فيها - وان كان الفرض خطأ - أنها وهبت غاية البساطة والتطابق أما أنا فاننى حين أتغلغل فيما أسميه «نفسى» أعرثر دائما على ادراك حسى معين أو آخر ، للحرارة أو البرودة ، للضوء أو الظل ، للحب أو الكره ، للألم أو اللذة . ولا أستطيع اطلاقا ان ألحظ شيئا غير الادراك الحسى . فاذا زالت عنى ادراكاتى الحسية أى فترة ، كما يحدث بالنوم العميق ، فاننى طوال هذه الفترة أكون عادم الحس «بنفسى» ، ويمكن القول حقا اننى غير موجود . واذا زالت ادراكاتى الحسية كلها بالموت ، فعجزت عن التفكير والشعور والابصار والحس والكره بعد تحلل جسمى ، فاننى أمحق محقا ، ولست أتصور ما يلزم بعد ذلك لجعلى عدما فى عدم واذا ضربنا صفحا عن بعض الميتافيزيقيين . . . فقد أجرؤ على التاكيد بأن باقى البشر ليسوا سوى حزمة أو مجموعة من مختلف الادراكات الحسية التى يعقب بعضها بعضا بسرعة فائقة ، والتى تتدفق تدفقا دائما . . . وهذه الادراكات الحسية المتعاقبة . . . تشكل الذهن (٨٤) » .

وهكذا بضرية واحدة من هذا الفتى المتهور سقطت ثلاث فلسفات : الفلسفة المادية ، لأننا (كما أثبت باركلى) لا ندرك «المادة» أبدا ، ولا نعرف غير عالمنا العقلى عالم الأفكار والمشاعر ؛ والفلسفة الروحانية ، لأننا لا ندرك أبدا «روحا» ملحقة بمشاعرنا وأفكارنا الخاصة ؛ وفلسفة الخلود ، لأنه ليس هناك «ذهن» يبقى حيا بعد الحالات الذهنية العابرة . وكان باركلى قد هدم المادية برده المادة ذهنا ، فضاغف هيوم التدمير برده الذهن أفكارا . فلا «المادة» ولا «الذهن» موجودان . لا لوم على ظرفاء العصر اذن أن «يرفضوا الفيلسوفين جميعا بهذه

العبارة « No matter, never mind (وفيها تورية ، لايهم (لا مادة) ،
لا بأس (ولا ذهن)) .

وحرية الارادة فى هذه النظرة المدمرة مستحيلة ، فليس هناك
ذهن يختار بين الافكار أو الاستجابات ، وتعاقب الحالات النفسية
يقرره ترتيب الأحاسيس ، وترابط الأفكار ، وتناوب الرغبات ؛ ان
« الارادة » ليست سوى فكرة تنساب فتصبح حركة ، والهوية الشخصية
هى شعور الاستمرار حين تستحضر حالة نفسية حالات سابقة وتربط بينها
بفكرة العلة .

ولكن العلة أيضا ليست سوى فكرة ؛ فليس قى قدرتنا أن نثبت
أنها واقع موضوعى . فاذا أدركنا أن : أ (اللهب مثلا) تعقبه بانتظام
ب (الحرارة) ، استنتجنا أن أ كانت العلة فى ب ، ولكن كل ما لاحظناه
هو تعاقب الأحداث ، لا عملية عليية ، فليس فى استطاعتنا أن نعرف أن
ب ستعقب أ دائما . « كل استدالاتنا العقلية المتصلة بالسبب والنتيجة
لا مصدر لها غير العادة (٨٥) » . وليست « قوانين الطبيعة » التى
نتحدث عنها الا تعاقبات مألوفه فى تجربتنا ؛ لا روابط ثابتة وضرورية
فى الأحداث ، ولا ضمان أنها ستصدق غدا . فالعلم اذن تراكم لاحتمالات
المعرضة للتغيير دون انذار . والميتافيزيقا مستحيلة اذا زعمت أنها نسق
من الحقائق حول واقع مطلق ، لأنه لا سبيل الى معرفة « الأسباب »
الكامنة وراء النتائج ، ولا « المادة » الكامنة وراء الأحاسيس ،
ولا « الذهن » الذى يقال انه كامن وراء الأفكار . وما دمنا نبني ايماننا
بالله على سلسلة من الأسباب والنتائج يفترض أنها ترتد الى « محرك
أول لا يتحرك » ، فان علينا أن نتخلى عن تلك السفطة الارسطاطالية .
ان الأشياء كلها تتدفق ، وما اليقينية الا حلم من الاحلام .

وبعد أن ينشر هيوم الدمار من حوله بسيف عقله البتار ، يتوقف
لحظة تواضع فيقول « حين أتأمل القصور الفطرى فى حكمى ، تقل
ثقتى بأرائى عنها حين أتأمل الأشياء التى أتناولها بالاستدلال (٨٦) »
فهو يعلم مثلنا أن اليقينية ليست ضرورية للحياة ، ولا للدين ، ولا حتى
للعلم ؛ وان درجة كبيرة من الاحتمال تكفى لعبور شارع أو بناء

كتدرائية أو لتخليص نفوسنا . ويسلم فى تذييل للكتاب بأنه قد يكون هناك رغم ذلك نفس وراء الأفكار ، وواقع وراء الاحاسيس ، وعلاقة عليية وراء التعاقبات المتصلة . وهو ثابت على موقفه نظريا « لم يسعدنى الحظ الى الآن بأن اكتشف أى أخطاء جسيمة فى الاستدلالات المعروضة فى المجلدين السابقين (٨٧) » . ولكنه يعترف فى لطف أنه ، غمليا ، يتخلى عن شكوكيته حالما يضع قلمه .

« لو سئلت هل أوافق مخلصا على هذه الحجة التى بذلت هذا الجهد فى اقرارها ، وهل أنا حقا واحد من هؤلاء الشكاك الذين يذهبون الى أن كل الاشياء غير يقينية لأجبت اننى لا أنا ولا أى شخص آخر دان بهذا الرأى فى أى وقت باخلاص وثبات (٨٨) اننى أتناول غذائى ، وألعب النرد ، وأتحدث وأسمر مع أصحابى ، فإذا عدت بعد ثلاث أو أربع ساعات من الترويح الى هذه التأملات ، بدت لى باردة مفتعلة سخيفة جدا بحيث لا أستطيع أن أجد فى صميم نفسي ما يدفعنى لمزيد من الأيغال فيها (٨٩) وهكذا يواصل الشكاك استدلاله العقلى واعتقاده ، وإن أكد أنه لا يستطيع الدفاع عن استدلاله العقلى بالعقل ؛ وعلى هذه القاعدة نفسها يجب أن يوافق على مبدأ وجود الجسد وإن عجز عن الادعاء بأى حجج من الفلسفة بأنه أثبت صحته (٩٠) » .

وأخيرا يتنكر هيوم للجدل العقلى باعتباره هاديا للحياة ويضع ثقته فى الايمان الحيوانى ، فى الاعتقاد القائم على العرف بأن الواقع عقلاى تتخلله العلية . وحين يؤكد هيوم أن « الاعتقاد هو على الأصح فعل من أفعال الجانب الحساس لا الجانب العارف من طبائعنا (٩١) » فإنه - وقد بلغ السابعة والعشرين من عمره - يلتقى بجان جاك روسو ، ذى الستة والعشرين ، فى الشباب والنظرية ، كما قدر له أن يلتقى به بعد ذلك فى الصداقة والمأساة . ولم يقتصر أبرع المجادلين العقليين فى عصر العقل على اتهام المبدأ العلى للعقل ، بل إنه فتح بابا لرد الفعل الرومانسى الذى سينزل العقل عن عرشه ويجعل من الوجدان الها له .

و « الكتاب » والمجلد الثانى من « الرسالة » يواصل انزال العقل

عن عرشه . فنرى هيوم يرفض محاولات الفلاسفة بناء مبدأ أخلاقي على تحكم العقل في العاطفة . وهو يعنى بكلمة العاطفة الرغبة الوجدانية . « لكى أثبت مغالطة هذه الفلسفة بأكملها ، سأحاول أن أثبت أولاً أن العقل وحده لا يمكن أن يكون دافعا لآى فعل من أفعال الارادة ؛ ثانياً أنه لا يستطيع اطلاقاً معارضة العاطفة فى اتجاه (ضد قوة) الارادة (٩٢) » . « فلا شيء يستطيع مقاومة أو تعطيل دافع العاطفة الا عاطفة مضادة » (أهذا صدى لسبينوزا ؟) . ويضيف هيوم امعانا منه فى ترويع المتشبهين بالقديم « ان العقل عبد ، وينبغى أن يكون عبداً ، للعواطف (الأداة المنيرة والمنسقة للرغبات) ولا يمكن أن يزعم لنفسه أى وظيفة أخرى سوى خدمتها وطاعتها (٩٣) » .

ثم يمضي الى تحليل دقيق للعواطف - وأهمها الحب ، والكراهة ، والعطف ، والغضب ، والطمع ، والحسد ، والكبرياء . « ان العلاقة التى تحدث فى الكثير الغالب عاطفة الكبرياء هى علاقة الملكية (٩٤) » . وكل العواطف تقوم على اللذة والألم ، وتمييزاتنا الاخلاقية تنبع فى النهاية من هذا المنبع الخفى ذاته « اننا نميل الى اطلاق اسم الفضيلة على أى صفة فى الآخرين تعطينا اللذة لأنها تعين على نفعنا ، وعلى اطلاق اسم الرذيلة على أى صفة بشرية تعطينا الألم (٩٥) » . وحتى مفاهيم الجمال والقبح مشتقة من اللذة والألم . يقول :

« لو تأملنا جميع الفروض التى وضعت ... لتفسير الفرق بين الجمال والقبح ، لوجدناها كلها تنحل الى هذا ، وهو أن الجمال نظام وتركيب للأجزاء ، مهياً لاعطاء اللذة والرضى للنفس ، اما بسبب التكوين الفطرى لطبائعنا (كما نرى فى جمال الجسم البشرى) أو بسبب العرف (كما نرى فى الاعجاب بنحافة القوام فى النساء) أو بسبب النزوة العارضة (كما نرى فى اصفاء الكمال على أوهام الرغبة المعاقة) ... فاللذة والألم اذن ليسا مرافقين ضروريين فحسب للجمال والقبح ، ولكنهما يكونان جوهرهما ذاته ، ... وما الجمال الا شكل يحدث اللذة ، كما أن القبح بناء للأجزاء يحدث الألم (٩٦) » .

والحب بين الجنسين يتركب من هذا الاحساس بالجمال ، مضافاً اليه « الرغبة الجسمية فى التناسل ورقة ومودة سمحتان (٩٧) » .

وفى مارس ١٧٣٩ عاد هيوم الى ادنبره . وراح يقلب الدوريات فى لهفة بحثا عن نقد لمجلديه ، وعانى من نتائج تقليبها . قال « لم تلق محاولة أدبية قط حذا أثر مما لقيت « رسالتى فى الطبيعة البشرية » فلقد ولدت ميتة من المطبعة ، ولم تحظ حتى باثارة دمدمة سخط بين المتعصبين (٩٨) » ولكنه حين كتب هذا فى شيخوخته كان قد نسي ، ربما بسبب الرغبة فى نسيان الذكريات الكريهة ، أن عدة مقالات نقدية ظهرت خلال سنة بعد نشر كتابه . وقد شكت كلها تقريبا من أنه عسير الفهم ، وأن المؤلف سمح لشبابه بالاعلان عن ذاته بتكرار الاشارة الى نفسه والى الجدة الخطيرة التى تنطوى عليها أفكاره . قال ناقد نموذجى من أعدائه : « ان ما يؤذى القارئ أشد الأذى هو تلك الثقة التى يسوق بها مفارقاته . . . فما عهدنا شاكا أشد من هذا قطعا بأرائه . . . وأمثال لوك وكلارك ليسوا فى الغالب فى نظره سوى مجادلين تافهين سطحيين بالقياس اليه (٩٩) » .

وأعد هيوم للمطبعة ، فى عزيمه صادقة رغم حزنه ، المجلد الثالث من رسالته ، المحتوى على الكتاب الثالث « فى الاخلاق » . وقد ظهر فى ٥ نوفمبر ١٧٤٠ . وساء تحليله للفضيلة العقلانيين بقدر ما ساء اللاهوتيين . فهو يزعم أن قواعد الفضيلة ليست الهامات خارقة ، ولكنها أيضا ليست استنتاجات خلص اليها العقل ، وذلك - كما يكرر هيوم القول « لأن العقل ليس له تأثير على عواطفنا أو أفعالنا (١٠٠) » . وحسنا الخلقى ليس مصدره السماء بل التعاطف - شعور الزمالة مع اخواننا من البشر ، وهذا الشعور جزء من الغريزة الاجتماعية التى بها نلتمس الارتباط بالغير لخشيتنا من العزلة . « ان أول حالة وموقف للانسان يمكن أن يوصفا بحق بأنهما اجتماعيان » ؛ و « الحالة الطبيعية » التى عاش فيها الناس دون تنظيم اجتماعى « يجب اعتبارها حديث خرافة (١٠١) » ، فالمجتمع قديم قدم الانسان . واذ كان الناس أعضاء فى جماعة ، فانهم سرعان ما تعلموا أن يمتدحوا التصرفات

١٤ - قصة الحضارة

النافعة للجماعة ، ويزموا الضارة بها . ثم ان مبدأ التعاطف جعلهم يميلون الى تقبل أو محاكاة الآراء التي سمعوها من حولهم ؛ وبهذه الطريقة اكتسبوا معايير وعادات الثناء واللوم ، وطبقوا هذه الأحكام بوعى أو بلا وعى على سلوكهم . هذا فى رأى هيوم أصل الضمير ، لا صوت الله (كما سيتصور روسو وكانط) . ويقول هيوم ان قانون التعاطف هذا ، قانون التجاذب الجماعى ، هو عام ومنير فى العالم الأخلاقى شأن قانون الجاذبية فى الكون المادى ، ثم يختتم بهذه العبارة « وهكذا يحدونى على الجملة الأمل بأنه لا ينقصنا شيء للبرهان الصحيح على هذا النسق من الأخلاق (١٠٢) » .

وكان المجلد الثالث أقل لفتا للأنظار حتى من المجلدين السابقين . وظلت بقايا النسخ الألف والمائة ، وهى مجموع نسخ الطبعة الأولى للرسالة ، الى سنة ١٧٥٦ ، مكدسة على رفوف الناشر ، ولم يعثر هيوم ليرى طبعة ثانية من كتابه .

ج - الأخلاق والمعجزات

كان واضحا أنه لا يستطيع كسب قوته بقلمه . وفى ١٧٤٤ بذل محاولة فاشلة للوصول الى كرسي الأستاذية بجامعة ادنبره . ولا شك أنه قبل فى شيء من الاحساس بالهوان (أبريل ١٧٤٥) وظيفه معلم خاص لمركيز أنانديل الصغير لقاء راتب قدره ٣٠٠ جنيه فى العام . أما المركيز فقد اختلط عقله ، وتبين هيوم أنهم يتوقعون منه أن يكون حارسا لجنون ؛ ونشبت المشاجرات ، فطرد (أبريل ١٧٤٦) واضطر الى رفع دعوى مطالبا براتبه . ثم اشتغل سنة (١٧٤٦ - ٤٧) سكرتيرا للجنرال جيمس سانت كلير ، وكان يتقاضى راتبا طيبا ، ويتناول طعاما طيبا . وفى يوليو ١٧٤٧ عاد هيوم الى ادنبره وهو يملك ويزن من الجنيهات أكثر كثيرا منه حين غادرها . وفى ١٧٤٨ أعاد الجنرال استخدامه سكرتيرا وياورا . هى بعثة الى تورين ، واكنسي ديفد الآن سترة قرمزية بتوهجة .

وأعجب جيمس كولفيلد (ايرل تشارلمونت فيما بعد) وكان يومها طالبا بتورين ، بذكاء هيوم وخلقه ، ولكن أفزعته سمنته . قال :

« ان سحنته حيرت علم الفراسة وأعيت قدراته ... فى الكشف عن أقل أثر لمواهبه العقلية فى ملامح وجهه التى تخلو من المعنى . كان وجهه عريضا سمينا ، وفمه واسعا ، بغير أى تعبير غير تعبير البلاهة ... وكانت بدانة جسمه كله أجدر بأن توحى للناظر بفكرة العمدة آكل القرسة ، لا الفيلسوف المهذب (١٠٣) » .

ويدعى كولفيلد هذا أنه رأى هيوم (وهو فى السابعة والثلاثين) جاثيا على ركبتيه أمام كونتيسة متزوجة (فى الرابعة والعشرين) ، يبثها غرامه ويعانى عذاب الحب المحقر ؛ أما السيدة فرفضت أن تبادله هذا الغرام قائلة انه ليس الا « عملية طبيعية فى نسقك الفسفى » . ويقول المصدر نفسه أن هيوم أصيب بالحمى وحاول الانتحار لولا أن منعه الخدم ، ويروى اسكتلندى آخر أن هيوم « تناول القربان الأخير » أثناء مرضه على يد كاهن كاثوليكي . وقيل ان هيوم اعتذر عن مطارحة الغرام وعن تناول القربان الأخير قائلا « ان نظام دماغى كان مختلا ، وكنت مجنونا كاي نزيل لمستشفى المجاذيب (١٠٤) » وفى ديسمبر ١٧٤٨ عاد الى لندن وفرغ للفلسفة بعد أن بلغت ثروته ألف جنيه .

واعترزم أن يجد أذنا مصغية من جديد لأفكار « الرسالة » ، فنشر فى ١٧٤٨ « تحقيقا عن الفهم البشرى » ، وفى ١٧٥١ « تحقيقا عن مبادئ الأخلاق » . وفى « اعلان » قدم به لطبعه لهذين التحقيقين صدرت بعد وفاته (١٧٧٣) تنكر للرسالة باعتبارها « عملا صبيانيا » ورجا أن « تعتبر المقالات التالية وحدها هى المحتوية على آرائه ومبادئه الفلسفية (١٠٥) » . أما تلاميذ هيوم فقد وجدوا عموما فى أعمال هيوم الأولى من الدسم أكثر مما وجدوا فى أعماله الأخيرة ، فهذه تغطى الأرض نفسها ربما بأسلوب أقل عدوانا وقطعا ، ولكنها تخلص الى النتائج ذاتها .

وبعد أن أعاد هيووم تحليله الشكى للعقل قدم القسم العاشر من التحقيق الأول ، وهو مقاله « فى المعجزات » الذى رفض الناشر من قبل أن يطبعه ضمن الرسالة . واستهله باعتداده العادى بنفسه ، « انى أغبط نفسي على أننى عثرت على حجة . . . اذا صدقت كانت للعقل والمثقفين رادعا دائما لكل ضروب الوهم الخرافى وستكون اذن نافعة أبد الدهر » . ثم يطلق أشهر فقراته فيقول :

« ما من شهادة تكفى لاثبات معجزة ، الا اذا كانت الشهادة من نوع يكون فيه كذبها أكثر اعجازا من الواقعة التى تحاول اثباتها . . . فاذا أنبأنى انسان بأنه رأى ميتا يبعث ، سألت نفسي للتو أيهما أكثر احتمالا ، أن يكون هذا الشخص خادعا و مخدوعا ، أو أن الواقعة التى يرويها وقعت فعلا . فأوازن بين المعجزتين ، وطبقا لرجحان احدهما . . . أرفض المعجزة الأكبر . ولن تجد فى التاريخ كله معجزة شهد عليها عدد كا فممن الناس ، أوتوا من صادق الادراك والتعليم والثقافة ما يؤمننا من أى انخداع قد ينخدعون به ، ومن النزاهة التى لا ريب فيها ما يرفعهم فوق أى شبهات من أى قصد فى خديعة غيرهم ، ومن الثقة وحسن السمعة فى أعين البشر ما يجعلهم يخسرون كثيرا اذا ضبطوا متلبسين بأى كذبة ؛ ويشهدون فى الوقت نفسه على وقائع وقعت علانية ، وفى جزء مشهور من العالم ، مما يجعل الضبط أمرا لا يمكن تجنبه ؛ وهذه الظروف كلها لازمة لاعطائنا الثقة الكاملة فى شهادة البشر . .

« ان القانون الذى نهتدى به عادة فى استدلالنا العقلية هو ان الأشياء التى لا خبرة لنا بها تشبه تلك التى لنا بها خبرة ؛ وأن ما وجدناه أكثر الأشياء عادية هو دائما أكثرها احتمالا ؛ وانه حيث يكون هناك تعارض فى الحجج ينبغى لنا أن نفضل تلك القائمة على أكبر عدد من الملاحظات الماضية . . وانها لقرينة قوية ضد جميع العلاقات الخارقة والاعجازية ما يلاحظ من أنها تكثر على الأخص بين الأمم الجاهلة

والهمجية ، . . . ومن الغريب أن مثل هذه العجائب لا تحدث أبداً في أيامنا . ولكن لا غرابة . . . في أن يكذب الناس في جميع العصور (١٠٦) » .

واسترسل هيوم في ادعاء عقبات أخرى في طريق الايمان المسيحي: حياد الطبيعة الهادىء ازاء الانسان ومناقسيه على الأرض ؛ وتنوع الشرور المتكاثر في الحياة والتاريخ ؛ ومسئولية الله الواضحة عن خطيئة آدم ، وعن جميع الخطايا ، في عالم لا يمكن أن يقع فيه شيء - طبقاً لفرض المسيحي - الا برضى الله . ودرءاً لتهمة الكفر عنه، أجرى هيوم على لسان «صديق يحب المفارقات الشكية» «لا أستطيع أبداً الموافقة» على مبادئه، دفاعاً عن تخيل أبيقور أن الآلهة موجودة ولكنها لا تعبأ بالبشر . ويتساءل الصديق لم لا يمكن أن يتفق الدين والفلسفة على ألا يزعج أحدهما الآخر كما اتفقا - فيما يظن - في الحضارة الهلنستية :

« بعد أن انتهى الفرع الأول الذى نجم عن مفارقات ومبادئ الفلاسفة الجديدة ، يبدو أن هؤلاء المعلمين عاشوا طوال العصور القديمة فى انسجام عظيم مع الخرافة المقررة ، وقسموا البشر قسمة عادلة بينهما : فالقسم الأول يدعى لنفسه جميع العلماء والحكماء ، والثانى جميع السوقة والأميين (١٠٧) » .

فياله من أسلوب للمهادنة !

وفى ١٧٤٩ عاد هيوم الى اسكتلندا ليعيش مع أخيه وأخته فى ضيعتهما بناينويلز . وبعد علمين تزوج جون هيوم ، وانتقل ديفد الى ادنبره ، وأرسل الى المطبعة الآن « التحقيق فى مبادئ الأخلاق » الذى أمل أن يحل محل المجلد الثالث من الرسالة ، وأكد من جديد أن الحس الأخلاقى مشتق من التعاطف أو المشاعر الاجتماعية ؛ ورفض ما ذهب اليه سقراط من أن الفضيلة والذكاء شيء واحد ؛ واستنكر استنكاراً قاطعاً فكرة لارشفوكو القائلة بأن الأفعال « الغيرية » مدفوعة أنانياً بأمل اللذة الحاصلة من التقدير الاجتماعى الذى يتوقع أن تحظى به . فاللذة

التي نستشعرها فى مثل هذه الأفعال ، فى رأى هيوم ، ليست سببا لها بل مرافقا ونتيجة لها ؛ أما الأفعال ذاتها فهى عملية من عمليات غرائزنا الاجتماعية (١٠٨) .

ولكن أبرز ملامح هذا التحقيق الثانى هو تفصيله لبدأ منفعة أخلاقى . فبعد هتشن بثلاثة وعشرين عاما ، وقبل بنتام بثمانية وثلاثين ، عرف هيوم الفضيلة بأنها « كل صفة فى العقل نافعة أو لذيدة للشخص نفسه أو لغيره (١٠٩) » . وعلى هذا الأساس برر اللذات الصحية للحياة باعتبارها نافعة للفرد ، والمعيار المزدوج للفضيلة باعتباره نافعا للمجتمع . يقول :

« ان طفولة الانسان الطويلة العاجزة تقتضى تضافر الوالدين للابقاء على حياة صغارهما ، وهذا التضافر يحتاج الى فضيلة العفة أو الوفاء للفراش الزوجى . . والخيانة من هذا النوع اشد اذى فى المرأة منها فى الرجل . ومن ثم كانت قوانين العفة اشد صرامة على أحد الجنسين منها على الآخر (١١٠) » .

وقد كتب المؤلف المفتون بكتابه عن هذا التحقيق فى مبادئ الأخلاق يقول : « فى رأى (أنا الذى ينبغى ألا أكون حكما فى هذا الموضوع) أنه من بين جميع مؤلفاتى . . . أفضلها بما لا يقاس » وأضاف « لقد ولد غير ملحوظ ولا مرموق فى هذه الدنيا (١١١) » .

د - الداروينية وروحانية

وفى ١٧٥١ ألف « حوارات فى الدين الطبيعى » . وهو اشد ما أخرج مزاجه الشيطانى تخريبا وعدوانا على المقدسات . هنا يتحدث ثلاثة أشخاص ، ديميا الذى يدافع عن السنية ، وكليانثيس الربوبى ، وفيلو الذى هو هيوم لا يخطئه النظر . ويزعم ديميا أنه ما لم نفترض وجود عقل أعلى وراء ظواهر الطبيعة فان العالم يصبح غير مفهوم الى

حد لا يطاق ، ولكنه يسلم ن الهه غير مفهوم بتاتا للعقل البشرى (١١٢) .
ويلوم كليانثيس ديميا على محاولته تفسير غير المفهوم بغير المفهوم ،
ويؤثر أن يثبت وجود الله بأدلة القصد فى الطبيعة . أما فيلو فيسخر
من الحجتين ، ويزعم أن العقل لا يمكن أبدا أن يفسر العالم أو يثبت
وجود الله . « فأى امتياز خاص تمتاز به حركة الدماغ الصغيرة هذه
التي نسميها الفكر ، حتى يتحتم علينا أن نجعلها نموذجا للكون
كله ؟ (١١٣) » . وأما عن القصد ، فان تكييف الأعضاء لتلائم الأغراض
ربما لم ينشأ عن ارشاد الهى ، بل عن تجارب الطبيعة ، البطيئة
المتخبطة ، خلال آلاف السنين (١١٤) . (هنا نجد « الانتخاب
الطبيعى » بعد ١٨٠٠ سنة من لوكرينيوس ، وقبل ١٠٨ سنة من
داروين) . وحتى لو سلمنا بالقصد فوق الطبيعى ، فان قصور
التكيفات وعيوبها ، وآلاف الآلام فى دنيا الانسان والحيوان ، تكشف
لنا - على أحسن الفروض - عن إله محدود القدرات والذكاء ، أو إله
غير مكترث للبشر بتاتا . « فحياة الانسان فى النهاية ليست أعظم
أهمية للكون عن حياة المحارة (١١٥) » يقول :

« يخيل للمرء أن هذا الانتاج الفخم لم يتلق آخر اللمسات من
خالقه ، فكل جزء فيه ناقص الصقل جدا ، والخطوط التى نفذ بها
غاية فى الخشونة . فالرياح مثلا تساعد الناس على الملاحه ، ولكن
ما أكثر ما تصبح مؤذية حين تنقلب زوابع وأعاصير ! والأمطار ضرورية
لتغذية جميع نباتات الارض وحيواناتها ، ولكن ما أكثر ما تكون شحيحة
وما أكثر ما تكون مسرفة ! . . . ليس فى الكون شيء كثير النفع الا انقلب
المره بعد المره مؤذيا لافراطه أو قصوره ، ثم أن الطبيعة لم تتخذ حيلتها
بالدقة المطلوبة من جميع ألوان الخلل أو الفوضى (١١٦) » .

وأسوأ من هذا أن الأمر لا يقتصر على وجود الخلل وسط النظام
(اذا نظرنا الى العالم على أنه مخطط) ، بل ان فى وسط الحياة
الزاخرة صراعا عقيما على الدوام مع الموت .

« ان حربا لا يخمد لها أوار تستعر بين جميع الكائنات الحية .
فبالضرورة ، والجوع ، والعوز - تحفز الأقوياء والشجعان ، والخوف ،
والقلق ، والرعب ، تقلق الضعفاء والعاجزين . وأول مدخل للوليد الى
الحياة فيه ألم مبرح له ولأمه المسكينة ، والضعف والعجز والضيق رفقاء
كل مرحلة من مراحل تلك الحياة ، ثم يختم آخر الامر بالعذاب والرعب
.. لاحظ أيضا .. حيل الطبيعة العجيبة ، لتكدر حياة كل كائن حي
.. .. تأمل ذلك الجيش العرمرم من الحشرات التى تتربى على جسم
كل حيوان ، أو تغرز حمتها فيه وهى تطير من حوله .. فكل حيوان
يحدق به أعداء يسعون على الدوام الى اشقائه وتدميره .. والانسان
ألد خصوم الانسان . فالقهر ، والظلم ، والاحتقار والاهانة ، والعنف ،
والاغواء ، والحرب ، والافتراء ، والغدر ، والتزييف ؛ بهذه يعذب
الناس بعضهم بعضا (١١٧) .

« انظر الى هذا الكون نظرة محيطية . يا لها من وفرة هائلة فى
الكائنات ، الحية المنظمة ، الحساسة النشيطة ! انك لتعجب بهذا التنوع
الضخم وهذه الخصوبة الهائلة . ولكن افحص بتدقيق أكثر هذه الكائنات
الحية .. ما أشد عداؤها وتدميرها بعضها لبعض ! .. والكل لا يمثل
سوى فكرة الطبيعة العمياء ، التى تزخر بمبدأ محى عظيم ، ويتدفق من
حجرها دون تمييز أو رعاية أبوية أطفالها الشائهنون المجهضون (١١٨) » .

وتوحى الأدلة المتضاربة على الخير والشر فى العالم الى فيلو
بثنائية الآلهة المتنافسين أو تعددهم ، بعضهم « أخيار » وبعضهم
« أشرار » ، وربما كانوا مختلفى الجنس . وهو يلمع فى خبث الى أن
العالم :

« لم يكن سوى المحاولة الفجة الأولى لآله طفل ألقع عنها بعد ذلك
خجلا من انجازه الاعرج .. أو أنه نتاج الشيخوخة والخرف فى آله طين
فى السن ، وبعد موته واصل العالم مسيرته مغامرا ، مدفوعا بالدفعة
والقوة الفعالة الأولى التى تلقاها منه (١١٩) » .

ولعل العالم كما أكد البراهمة « نشأ عن عنكبوت لا نهائى غزل
خيوطه المعقدة كلها من امعائه . . . فلم لا يغزل نسق منظم من البطن
كما يغزل من الدماغ ؟ (١٢٠) » . فتكون الخليقة والحالة هذه انسالا .
أو ربما « كان العالم حيوانا والاله روح العالم التى تحركه
وتتحرك به (١٢١) » .

وبعد هذا المزاج كله يعود فيلو الى القصد ، فيسلم بأن « علة النظام
أو علة فى الكون فيها على الأرجح بعض الشبه بالذكاء الانسانى (١٢٢) » .
ثم يعتذر عن آرائه المخزية عن الكون :

« يجب أن أعترف اننى أقل حذرا فى موضوع الدين الطبيعى
منى فى أى موضوع آخر . . . وأنك على الأخص يا كليانثيس ، أنت
الذى أعيش معه فى علاقة حميمة بغير قيود ، تدرك أننى رغم تحرر
حديثى ، وحبى للحجج الغريبة ، فليس هناك من طبع ذهنه بأحاساس
بالدين أعمق من احساسى ، أو من يعبد الكائن الالهى عبادة أعمق اذ
يكتشف فى نفسه أنه يناقش أساليب الطبيعة وحيلها التى لا يمكن
تفسيرها . فالقصد ، أو النية ، أو التخطيط ، يسترعى فى كل مكان
نظر أشد المفكرين غفلة وغباء ، وما من رجل يمكن أن يتجمد فى المذاهب
الفلسفية السخيفة تجمدا يجعله يرفض هذا القصد على طول
الخط (١٢٣) » .

على أن أصحاب هيوم ناشدوه ألا ينشر الحوارات رغم هذا العرض
بالمصالحة . فأذعن ، وحبس المخطوطة فى مكتبه ، فلم تر النور الا فى
عام ١٧٧٩ ، بعد موته بثلاثة سنوات . ولكن افتتاحه بالدين أغراه بالعودة
الى الموضوع ، وفى ١٧٥٧ نشر « أربع مقالات » تناولت احداها « تاريخا
طبيعيا للدين » . وسحب مقالين آخرين بناء على الحاج ناشره ، وقد
طبعوا حين كان أبعد من أن يناله خوف أو لوم ؛ وأحد المقالين عن
الخلود ، والآخر تبرير للانتحار حين يصبح الشخص عبئا على
اخوانه .

ومقال « التاريخ الطبيعى للدين » هذا يجمع بين اهتمام هـيوم .
القديم بالدين ، واهتمامه الجديد بالتاريخ . فقد فات مرحلة الهجوم على .
المعتقدات القديمة الى مرحلة التساؤل عن كيفية توصل الانسان الى .
اعتناقها . ولكنه لا يميل الى البحث الصابر المستأنى ، حتى بين المواد
الشحيحة المتاحة آنئذ عن الأصول الاجتماعية ، بل يؤثر أن يتناول
المشكلة بتحليل السيكولوجى والاستنباط العقلى . فعقل الانسان البدائى
فسر العلية كلها قياسا على ارادته وسلوكه ، فورا أعمال الطبيعة وأشكالها
- كالانهار والمحيطات والجبال والعواصف والأوبئة والعجائب الخ -
تصور هذا الانسان أعمالا ارادية يقوم بها أشخاص مختلفون ذوو قدرة
خارقة ؛ ومن هنا كان الشرك أول ضروب الايمان الدينى . واذ كانت قوى
أو أحداث كثيرة مؤذية للانسان ، فقد كان للخوف نصيب موفور فى
أساطيره وعباداته ، فجسد هذه القوى الشريرة أو الشياطين وحاول
أن يسنرضيها . ولعل الآله الذى آمن به كلفن كان شيطانا قاسيا ، خبيثا ،
مستبدا ، صعب الارضاء (وهذه اشارة خبيثة من هـيوم) (١٢٤) . واذ
تصور الانسان الآلهة الخيرة على شكل البشر - الا من حيث القوة .
والدوام ، فانه افترض أنها تمنح العون والراحة لقاء الهدايا والزلفى ،
ومن ثم كانت طقوس القرابين ، والضحايا ، والعبادة ، وصلاة التضرع .
وبازدياد التنظيم الاجتماعى حجما واتساعا ، وبخضوع الحكام المحليين
للملوك أعظم ، مرت دنيا اللاهوت بتغيير مشابه ، فعزا الانسان فى الخيال
الى الآلهة نظاما هرميا تسوده الطاعة ، وانبعث التوحيد من الشرك ،
وبينما كانت الجماهير لا تزال تجثو للآلهة أو القديسين المحليين ، عبد
المثقفون زيوس ، أو جوبتر ، أو الله .

ولسوء الحظ أصبح الدين أكثر تعصبا كلما غدا أكثر توحيدا .
فالشرك سمح بألوان كثيرة من العقيدة الدينية ، أما التوحيد فقد طالب
بالتماثل . وانتشر الاضطهاد ، وغدت الصيحة المطالبة بالعقيدة السنوية
« أعنف العواطف الانسانية وأعتاها جميعا (١٢٥) » . وأكرهت الفلسفة
على أن تكون خادما لايمان الجماهير ومدافعا عنه بعد أن كانت مطلقة

نسبياً بين القدامى باعتبارها دين الصفة . وفى هذه العقائد التوحيدية - اليهودية والمسيحية والاسلام - فصل الاستحقاق و « الخلاص » أكثر فأكثر عن الفضيلة ، وربط بحفظ الشعائر والايمان الاعمى . وترتب على هذا ان المتعلمين أصبحوا اما شهداء واما منافقين ، وبما أنهم قلما اختاروا الاستشهاد ، فان حياة البشر لوثها النفاق وعدم الاخلاص .

على أن هيوم كان يغضى عن قدر من النفاق ، وذلك فى نوباته الأقل ولعا بالقتال . مثال ذلك أنه حين استشاره قسيس شاب فقد ايمانه أبقى فى الكنيسة ويقبل وظائفها ، أجاب ديفد ، ابق :

« ان الوظائف المدنية الصالحة للمثقفين نادرة . . . ومن المغالاة فى احترام العامة ونزعاتهم الخرافية ان يعتز المرء باخلاصه معهم . فهل حدث مرة أن التزم انسان بشرفه بأن يقبل الصدق للأطفال أو المجانين ؟ . . . والوظيفة الكنسية انما تضيف القليل الى الخداع أو قل التظاهر - البريء - الذى بدونه يستحيل على المرء أن يشق طريقه فى هذه الدنيا (١٢٦) » .

ه - الشيوعية والديمقراطية

اتجه هيوم فى أخريات عمره أكثر فأكثر الى السياسة والتاريخ بعد أن أعياه الجدل حول مسائل يقررها الوجدان - فى رأيه - أكثر مما يقررها العقل . وفى ١٧٥٢ نشر « أحاديث سياسية » . وقد أدهشه اقبال القراء عليها . وأبهج انجلترا أن تنسى نزعة لاهوته المدمرة فى النزعة المحافظة لسياسته .

كان يتعاطف بعض الشيء مع التطلعات الى مساواة شيوعية :

« لا بد فى الحق من الاعتراف بأن الطبيعة سخت على الانسان سخاء يتيح لكل فرد أن يتمتع بجميع ضروريات الحياة ، بل أكثر كمالياتها ، لو أن عطياها كلها قسمت بالقسط بين الانواع ، وحسنت

بالفن والصناعة ، . . كذلك لا بد من الاعتراف باننا أينما خرجنا على هذه المساواة سلينا من الفقراء رضي أكثر مما نضيف الى الاغنياء ، وبأن الاشباع الطفيف لغرور طائش فى فرد واحد ، كثيرا ما كلف أكثر مما يكلفه الخبز لكثير من الأسر بل الاقاليم . »

ولكنه أحس أن الطبيعة البشرية تجعل حلم المدينة الفاضلة التى تسودها المساواة ضربا من المحال :

« ان المؤرخين ينبئوننا ، لا بل الفطرة السليمة تنبئنا ، بأن هذه الأفكار عن المساواة « التامة » مهما بدت قيمة الا أنها فى صميمها « غير ممكنة عمليا » ، والا لآلحقت أشد الأذى بالمجتمع الانسانى . فلو انك سوبت تسوية تامة بين الملكيات ، لحطمت درجات الناس ومراتبهم المختلفة من حيث الصنعة والعناية والجد تلك المساواة فورا . أو لو فرضت الرقابة على هذه الفضائل . . . لاحتجت الى أكثر محاكم التفتيش صرامة لمراقبة أى ضرب من عدم مساواة بمجرد ظهوره ، وأشد السلطات القضائية صرامة لعقابه واصلاحه . . . فمثل هذا السلطان المفرط لا بد أن ينحدر سريعا الى درك الطغيان (١٢٧) » .

ونالت الديمقراطية من هيوم ، كما نالت الشيوعية ، رفضه المتعاطف . فالمبدأ فى رأيه « مبدأ . . . نبيل فى ذاته . . . ولكن تكذبه كل التجارب ، أن الناس هم الأصل فى كل ضرور الحكم العادل (١٢٨) » . ورفض النظرية (التى سيحييها روسو بعد قليل) القائلة بأن الحكومة نشأت أصلا من « تعاقد اجتماعى » بين الناس ، أو بين الشعب والحاكم ، لأنها نظرية صبيانية :

« فكل الحكومات الموجودة الآن تقريبا ، أو التى خلفت لنا أى سجل فى التاريخ ، أسست أصلا إما على الاغتصاب ، أو على الغزو ، أو عليهما جميعا ، دون أن تزعم بأنها حظيت بموافقة الشعب ، أو

بخضوعه الاختيارى . وأغلب الظن أن أول سيطرة الانسان على الجماهير بدأت فى حالة الحرب وكان من أثر استمرار تلك الحالة طويلا وهو أمر مألوف لدى القبائل المتوحشة ، أن الشعب تعود الخضوع (١٢٩) « .

وهكذا أصبحت الملكية أكثر أشكال الحكم انتشارا ، ودواما ، واذن فأكثرها عملية على الأرجح . « ان الامير الوراثة ، والنبلاء دون اتباعهم ، والشعب الذى يصوت بواسطة ممثليه ، يؤلفون خير ملكية ، وارشقراطية ، وديمقراطية (١٣٠) « .

وبالاضافة الى تنفيذ هيوم لروسو سلفا ، استخدم أسلوبه « الاديسونى » لينبذ سلفا نظرية مونتسكيو التى تزعم أن مناخ البلد يقرر طبع أهله . كتب يقول فى « مقالات أخلاقية وسياسية » ظهرت طبعتها الثانية فى آن واحد تقريبا (١٧٤٨) مع « روح القوانين » : « أما عن الاسباب الطبيعية فانى أميل الى الشك فى مفعولها فى هذا المجال . كذلك لا أظن أن الناس يدينون بأى شىء فى طبيعهم أو نبوغهم للهواء أو الغذاء أو المناخ (١٣١) « . فالخلق القومى يترتب على الحدود القومية لا المناطق المناخية ، وأهم ما يقرره هو القوانين والحكومة وهيكل المجتمع وأعمال السكان ومحاكاة الجيران أو الرؤساء .

فى ظل هذه العوامل المختلفة المحلية تكون الطبيعة البشرية أساسا طبيعة واحدة فى كل زمان ومكان ؛ فالدوافع والغرائز ذاتها ، التى تفرضها دواعى البقاء ، تنتج أساسا ، فى جميع العصور والأقطار ، الأفعال والنتائج ذاتها .

« فالطموح والجشع ومحبة الذات والغرور والصدائة والكرم وروح الجماعة - هذه العواطف ، المختلطة بدرجات متفاوتة ، والموزعة بين أفراد المجتمع ، كانت منذ أن وجدت الدنيا وما زالت مصدر جميع

الأفعال والمشروعات التي لوحظت بين بنى البشر . أتريد أن تعرف عواطف اليونان والرومان وميولهم وسير حياتهم ؟ اذن فادرس جيدا طبائع الفرنسيين والانجليز وأفعالهم ، فلن تخطيء كثيرا أن طبقت على الأولين معظم الملاحظات التي لاحظتها على الآخرين - فالبشر شديدو التشابه في كل زمان ومكان حتى ان التاريخ لا يضيف الى علمنا جديدا أو غريبا في هذا الباب . وأهم فائدة له أنه يكشف عن المبادئ الثابتة والعامّة للطبيعة البشرية بعرضه البشر في شتى الظروف والمواقف ، ويمدنا بالمواد التي نكون منها ملاحظتنا ونحيط منها علما بالمنابع المنتظمة لأفعال البشر وسلوكهم . فهذه السجلات للحروب والدسائس والأحزاب والثورات هي مجموعات كثيرة من التجارب يستعين بها فيلسوف السياسة أو الأخلاق على تحديد مبادئ علمه (١٣٢) « .

وقد أضاف هيوم اضافات قيمة للفكر الاقتصادي في كتابيه « أحاديث سياسية » و « مقالات ورسائل في موضوعات مختلفة » (١٧٥٣) . ذلك أنه رفض رأى الفيزيوقراطيين الفرنسيين القائل بأن جميع الضرائب تقع في النهاية على الارض . وذهب الى أنها تقع في النهاية على العمل ، لأن « كل شيء في العالم يشتري بالعمل (١٣٣) » (وهو هنا مراد صدق لوك) . وحتى قبل أن تتشكل الثورة الصناعية تنبأ بان العمال « سيرفعون أجورهم بالتكتل » ، وندد بتمويل المصروفات والمشروعات الحكومية بالضرائب المرتفعة والاصدارات المتكررة للسندات ، وتنبأ بأن مثل هذه الاجراءات الضريبية ستجر « الحكومات الحرة » الى « حالة العبودية التي ترزخ تحتها جميع الامم المحيطة بنا » (١٣٤) . والنقود ليست هي الثروة ، وسك مقادير تزيد على متطلبات التجارة منها انما يرفع الاسعار ويعرقل التجارة الخارجية . والنظرية « المركنتلية » الخاطئة التي ما زالت تحمل الدول الاوربية على التركيز على الصادرات ، ومنع الواردات ، وتجميع

الذهب ، ستحرم أوروبا من المنافع الدولية الناشئة عن قدرة كل أمة على إنتاج سلع نوعية بفضل التربة والمناخ والمهارات الخاصة بأدنى تكلفة وأعلى جودة . ثم جرؤ على أن يهمل :

« لا بوصفى انسانا فحسب، بل أحد الرعايا البريطانيين ، . . لأجل التجارة المزدهرة لألمانيا ، وأسبانيا ، وإيطاليا ، بل وفرنسا ذاتها . وانى على الاقل واثق أن بريطانيا العظمى وهذه الامم جميعا سيزيد ازدهارها لو أن ملوكها ووزراءها اعتنقوا هذه الآراء السمحة الخيرة نحو بعضهم البعض . . . فازدياد الثروة والتجارة فى أى أمة لا يؤذى وانما على العكس من ذلك يدعم عادة ثروة وتجارة جيرانها جميعا (١٣٥) » .

هذه الأفكار ، التى ربما كانت متأثرة بمذهب « عدم التدخل » الذى نادى به الفيزيوقراطيون ، أثرت بدورها فى آدم سميث ، صديق هيوم ، ولعبت دورا فى تطوير سياسة بريطانية تقول بحرية التجارة ، وهى تجد تحقيقها فى أوروبا الغربية فى عصرنا هذا .

و - التاريخ

فى ١٧٥٢ بعد حملة شنها عليه الحزب السننى الذى اتهمه بأنه زنديق وقح ، انتخب هيوم أمينا لمكتبة كلية المحامين بادنبره . وكان المنصب كبير المعنى فى نظره رغم تواضع راتبه الذى لم يزد على أربعين جنيها فى العام ، لأنه جعله السيد المتصرف فى ثلاثين ألف مجلد . وبفضل وجود هذه المكتبة فى متناوله استطاع ان يؤلف كتابه « تاريخ انجلترا » . وكان فى عام ١٧٤٨ قد اعترف الى صديق له بهذه الكلمات « لقد طالما نويت ان أؤلف كتاب تاريخ فى سننى حياتى الاكثر نضجا (١٣٦) » . وكان يسمى التاريخ « الخليفة العظمى للحكمة (١٣٧) » ، ويؤمل أن يجد فيه أسباب نهوض الأمم وسقوطها ، يضاف الى هذا :

« ان نرى النوع الانسانى كله يمر بنا وكأنه فى عرض أمامنا ،
باديا على سجيته ، دون أى من هذه الاستخفاءات التى طالما شويشت.
حكم المتفرجين على هؤلاء الناس أثناء حياتهم - فأى مشهد آخر يمكن
أن تتصوره بهذا البهاء والتنوع والتشويق ؟ وأى متعة للحواس أو
الخيال يمكن أن تقارن به ؟ (١٣٨) » .

ان من مظاهر القرن الثامن عشر أنه أنجب فى جيل واحد ثلاثة
من أعظم مؤرخى العالم ؛ فولتير ، وهيوم ، وجبون ، وكلهم مؤسس
فى الفلسفة ، محاول أن يعيد تفسير التاريخ بلغة غير لغة اللاهوت ،
وفى أعرض منظور للمعرفة حشده زمانهم . ولم يملّ جبون من الثناء
على هيوم والاقرار بفضل تأثيره ، وكان يقدر اطراء هيوم للمجلد الأول
من « اضمحلال الاميراطورية الرومانية وسقوطها » (١٧٧٦) فوق
كل اطراء آخر . فهل كان هيوم بدوره مدينا بالكثير لفولتير ؟ كان قد
توصل الى فلسفته وصاغها كباحث مدين للربوبيين الانجليز لا للشكاك
الفرنسيين . « والرسالة فى الطبيعة البشرية » سبقت كل الاعمال
الكبرى التى كتبها فولتير وديدرو ومونتسكيو . ولكن ربما كان كتاب
هيوم « تاريخ انجلترا » (١٧٥٤ - ٦٢) مدينا بشيء لكتاب فولتير
« عصر لويس الرابع عشر » (١٧٥١) ، وحتى لكتاب « مقال فى
العرف » الذى طبعت أجزاء منه فى ١٧٤٥ و ١٧٥٥ . هؤلاء المؤرخون
الثلاثة كلهم أجمعوا على فضح الخرافة ، ورفض التفسيرات الخارقة ،
والتوحيد بين التقدم وتطور المعرفة والعادات والفنون .

وكتب هيوم تاريخه الى الخلف . فغطى مجلده الأول الصادر فى
(١٧٥٤) عهدى جيمس الأول وتشارلز الأول - السنوات ١٦٠٣ - ٤٩ ،
والثانى (الصادر فى ١٧٥٦) امتد من ١٦٤٩ الى ١٦٨٨ ، والثالث
والرابع (الصادران فى ١٧٥٩) من ١٤٨٥ الى ١٦٠٣ ، والخامس
والسادس (الصادران فى ١٧٦١) من غزو يوليوس قيصر لانجلترا الى
ارتقاء هنرى السابع العرش فى ١٤٨٥ .

وقد أدهشه عنف النقد الذى هوجم به المجلد الأول . كان يؤمن بأن تسلط حزب الاحرار على انجلترا منذ استقدموا وليم الثالث فى ١٦٨٨ ، وخوفهم من الثورتين الاستيوارتيتين الناشبتين فى ١٧١٥ و ١٧٤٥ ، قد لوثا كتابة التاريخ الرسمى الانجليزى بالعداء لأسرة ستيوارت ، ثم زعم أنه برىء من النزعات المضادة . « رأيتنى المؤرخ الوحيد الذى أهمل فى وقت واحد للحكومة والمصلحة والسلطة الزاهنة من جهة ، وصيحة التحيز الجماهيرى من جهة أخرى (١٣٦) » . ولكنه نسي أنه اسكتلندى ، وأن اسكتلنדה مازالت تبكى سرا أميرها الجميل تشارلى ، وأن الاسكتلنديين ، وأغلب الظن أن هيووم لم يشذ عنهم ، لم يغفروا قط لانجلترا قتلها تشارلز الأول نصف الاسكتلندى ، واستقدامها أولا رجلا هولنديا ، ثم آخر ألمانيا ، لحكم انجلترا واسكتلنדה وويلز . فبينما نراه يسلم بأن تشارلز الأول جاوز حدود الامتيازات الملكية واستحق أن يخلع ، نجده بصور البرلمان متجاوزا بالمثل حقه ، ومذنبا بالمثل فى أمر الحرب الأهلية . ولقد سلم بحق لامة فى خلع الملك الطالح ، ولكنه تمنى لو ان أحدا لم يدفع هذا الحق قط الى نهايته ، وخاف من « هياج الشعب وظلمه » وأحس أن اعدام تشارلز « الرجل المعتدل الكريم النفس » قد زعزع بشكل خطر عادات الشعب فى احترام الحكومة . واحتقر البيورتان لأنهم « منافقون متظاهرون بالتقوى » لوثوا « لغتهم « برطانة » غامضة و « ووشوا ااثامهم بالصلوات (١٤٠) » . وحكم على فترة الكومنولث (جمهورية كرومويل) بأنها فترة تقوى قاتلة ، وطغيان عسكري ، وفوضى اجتماعية ، لم تبرا البلاد منها الا بعودة أسرة استيوارت الى العرش . وقد ذهب فولتير فى عرضه لتاريخ هيووم الى أنه منصف تمام الانصاف :

« ان المستر هيووم . . . غير متحيز للبرلمان ولا للملكية ، ولا هو انجليكانى ولا مشيخى ، انما هو رجل منصف لا أكثر . فلقد طالما حرم جنون الحزبية انجلترا من المؤرخ النزيه كما حرمها من الحكومة الصالحة . فما كتبه محافظ كان يرفضه الاحرار ، الذين يكذبهم المحافظون بدورهم . . . ولكننا نجد فى المؤرخ الجديد ذهنا يسمو فوق مظنانه ،

يتحدث عن مواطن الضعف وعن الاخطاء الجسيمة وافعال القسوة حديث
الطبيب عن الأوبئة (١٤١) .

اما النقاد البريطانيون فلم يوافقوا فولتير . فهم لم ياخذوا على
هيوم انه قل أن يرجع الى المصادر الاصلية ، بل (كما ذكر فيما بعد)
« هوجم بصيحة واحدة كلها لوم واستنكار ، بل بغض وكراهية .
فالانجليز ، والاسكتلنديون ، والارلنديون ، والاحرار ، والمحافظون ،
ورجال الكنيسة الانجيكانية وأتباع المذاهب المنشقة ، واحرار الفكر
والمتدينون ، والوطنيون والحاشية - كل أولئك أجمعوا على السخط على
الرجل الذى جرؤ على أن يذرف دمعة كريمة على مصير تشارلز الاول
وايرل سترافورد . وبعد ان همدت السورة الاولى لغضبهم ، كان أشد
خزيا ما بدا من أن الكتاب طوى فى زوايا النسيان . وقد اخبرنى المستر
ملر أنه لم يبيع خلال اثنى عشر شهرا الا خمسا وأربعين نسخة منه (١٤٢) »

وقد فت هذا فى عضده حتى لقد حدثته نفسه حينما بأن يرحل كما
رحل فى شبابه الى مدينة من مدن الأقاليم فى فرنسا ، حيث يستطيع
العيش باسم منتحل . ولكن فرنسا وانجلترا كانتا تفتتلان ، وقد أوشك
المجلد الثانى على نهايته ، فاعتزم أن يواصل العمل . وازداد تحيزه
بسبب ما لقى من معارضة ، ففى تنقيحه للمجلد الاول أدخل « نيفسا
ومائة تغيير » . ولكنه يقول بكل البهجة الخبيثة التى يستشعرها
عفريت ضخم « جعلتها كلها فى صف المحافظين (١٤٣) » ومع ذلك
بيع من المجلدات التالية عدد لا بأس به ، ورحب به المحافظون الآن
محاميا شديد المرس ، وسلم بعض الاحرار بسحر أساوبه البسيط ،
الواضح ، البتار ، الصريح ، الذى سبق أحيانا وقار جبون الحصيف .
فوصفه للمصراع المثير بين هنرى الثانى وتوماس أبيكيت يضارع رواية
جبون لاستيلاء العثمانيين على القسطنطينية . ورفع تأثير المجلدات
الستة المتراكم صيت هيوم الى ذروته . وفى ١٧٦٢ ذهب بوزويل فى
تقديره له الى أنه « أعظم الكتاب فى بريطانيا (١٤٤) » - ولكن بوزويل
كان اسكتلنديا . وفى ١٧٦٤ صرح فولتير فى تواضع بأن الكتاب « ربما
كان أفضل تاريخ كتب فى أى لغة اطلاقا (١٤٥) » وقد أزاحه جبون
وماكولى الى الظل ، ووازن ماكولى تحيزه بتحيز معادل ، ولا ينصحنا

المؤرخون بقراءة كتاب هيوم اليوم ، لأن تسجيله للوقائع قد طرأت عليه تحسينات منذ أمد بعيد ، ولكن قارئاً بدأ قراءته باعتبارها واجبا فوجد فيه الانارة والمتعة ..

ز - الفيلسوف العجوز

في ١٧٥٥ بدأت حركة يقودها بعض رجال الدين الاسكتلنديين لاتهام هيوم أمام مجمع الكنيسة العام بتهمة الزندقة ، وكان « التنوير الاسكتلندي » قد أنجب حركة متحررة بين شباب القساوسة ، فاستطاعوا أن يحولوا دون أى ادانة علنية للفيلسوف - المؤرخ ؛ ولكن الهجمات الكنسية اتصلت ضده ، ولدغته لدغات جعلته يعود الى التفكير فى الفرار . وواتته فرصته حين دعاه ايرل هرتفورد (١٧٦٣) ليكون نائب سكرتير له فى سفارة لفرنسا ، وحصل له على معاش قدره ٢٠٠ جنيه مدى الحياة .

وكان منذ أمد بعيد معجبا بالفكر الفرنسي ، وقد تأثر بالرعييل الأول من كتاب « التنوير » الفرنسي ، وراسل مونتسكيو وفولتير . وكانت أعماله تحظى فى فرنسا بثناء يفوق كثيرا ما حظيت به فى انجلترا . وعشقتة الكونتيسة دبوليه من قراءة كتبه ، وكتبت له تتملقه ، وجاءت الى لندن لتراه ، فأفلت منها . ولكن حين وصل باريس بسطت عليه رعايتها ، وجعلته بطل صالونها ، وناضلت لتوقظ فى صدره عاطفة الرجولة ، ولكنها وجدته أثبت وأرسي من أن تجرفه رياح الغرام . وكان يدعى للمآدب فى الاجتماع تلو الاجتماع . قالت مدام دبينيه « لا تكتمل وليمة بدونه » . وفتحت له الارستقراطية ذراعيها ، ورشت من حوله عظيمات النساء - حتى بومبادور العليلة . وكتب يقول : « انى واثق أن لويس الرابع عشر لم يكابد قط فى أى ثلاثة أسابيع من حياته مثل هذا التملق الكثير » . والتقى بطورجو ودالمبير ودولباخ وديدرو ، ودعاه فولتير من عرشه النائى فى فرنيه « يا قديسي ديفد » . وأدهش ايرل هرتفورد أن يجد الناس يسعون وراء سكرتيره وينحنون له أكثر كثيرا مما يفعلون معه . ولكن هوراس ولبول غاظه هذا كله ، وسخر بعض « الفلاسفة » من بدانة هيوم غيرة منه . وفى

احدى الحفلات بعد ان دخل هيوم عقب دالمبير باية من الانجيل الرابع (يوحنا) « والكلمة صار جسدا » وقيل ان احدى السيدات المعجبات بهيوم ردت هنا على الملاحظة بحضور بديهة عجيب « والكلمة صار محبوبا (١٤٦) » . لا عجب ان يكتب هيوم ، الذى تاكده خصومه فى ادنبره ، وكرهوه فى لندن ، « ان الحياة فى باريس تبعث على الرضى الحقيقى لوفرة مجتمع الاشخاص المعقولين الاذكياء المهذبين ، الذين تزخر بهم المدينة (١٤٧) » .

وفى نوفمبر ١٩٦٥ اقبل سفير بريطانيا جديد ، فانهى استخدام هيوم . فعاد الى ادنبره ، ولكن فى ١٧٦٧ قبل وظيفة وكيل فى وزارة الخارجية بلندن . فى هذه الفترة اتى بروسو الى انجلترا ، فخلق له مقاعب مشهورة ، ولا بد من ارجاء هذه القصة الآن . وفى اغسطس ١٧٦٩ ، حين بلغ الثانية والخمسين ، عاد نهائيا الى ادنبره ، وقد غدا الان « غنيا جدا (لاننى كنت املك دخلا قدره ألف جنيه فى العام) صحيح البدن ، أتوقع - رغم انى طعنت فى السن بعض الشيء - ان استمتع طويلا بالراحة ، وان ارى شهرتى فى اتساع (١٤٨) » .

وأصبح بيته فى شارع سانت ديفد صالونا يجتمع فيه من حوله آدم سمث ووليم روبرتسن وغيرهما من مشاهير الاسكتلنديين كانه ملكهم المعترف به . ولم يحبوه لرجاحة ذهنه فحسب ، فقد رأوا انه رغم استدلالاته العقلية المحطمة للمقدسات ، محدث ظريف بشوش معتدل فى الجدل متسامح مع الآراء المعارضة ، لا يسمح للخلاف فى الأفكار بالانتقاص من حرارة صداقاته . ويبدو انه (كمونتيني وفولتير) كان يضع الصداقة فوق الحب . « ان الصداقة بهجة الحياة الانسانية الكبرى (١٤٩) » . ومع ذلك كان محبوبا من النساء ، ربما لانه لم يكن متزوجا . وكان الضيف الاثير فى بيوت كثيرة ، واذا كانت سمته تتلف المقاعد (١٥٠) ، فان خفة روحه عوضت عن ثقل بدنه ، وقد اقترح ضريبة على السمنة ، ولكنه توقع ان « بعض القساوسة قد يدعون ان الكنيسة فى خطر » ، وكان يبارك ذكرى يوليوس قيصر لانه اثر السمان من الرجال - قال آدم سمث : « كنت على الجملة اعده دائما . . اقرب ما تسمح به طبيعة الضعف البشرى من فكرة عن الرجل الكامل الحكمة والفضيلة (١٥١) » .

وإذا لم يكن بد من البحث عن نقائص في هذا الخلق الذي بلغ غاية اللطف ، أو عن بقع معقمة في هذا الذهن الأملع ، فإن أكبر أخطائه التي يصعب اغتفارها له هي إشاراته إلى « الفرض البشع » الذي افترضه سبينوزا « الكافر » (١٥٢) ، وهي إشارات لا بد أن الهدف منها كان تغيير لون جلده ليحمى نفسه . ولقد كانت سيكولوجية هيوم أكثر سيكولوجيات زمانه نفاذاً ، ولكنها لم تعلق تماماً الاحساس بالهوية الشخصية ؛ فإن حالة نفسية ما لا تستدعي حالة نفسية أخرى فحسب ، بل قد تستدعيها باعتبارها حالتي « أنا » ، واحلال « التابع المنتظم » محل « العلة » لا يتطلب سوى تغيير في العبارة ؛ و « التابع المنتظم » كاف للعلم والفلسفة ؛ وكتابه « تاريخ انجلترا » لا يفتأ يحاول تفسير الأحداث بالأسباب (١٥٣) . وإن شكوكه تخطى عنها صاحبها صراحة في الحياة العملية ، لا بد أن تكون خاطئة من حيث نظريتها ، لأن الممارسة هي المحك النهائي للنظرية . ومن الغريب أن هيوم مع رده العلة إلى العرف ، والفضيلة إلى شعور التعاطف ، لم يعط وزناً يذكر للعرف والشعور في تفسيره للدين ، وأبدى أقل التعاطف مع وظائف الدين الملحة في التاريخ . وكان عديم الاحساس بتعزيزات الايمان ، والراحة التي كان يسمح بها على النفوس المقشعة أمام سر الوجود وضخامته ، أو وحشة الحزن ، أو حتمية الهزيمة القاسية . لقد كان نجاح وسلى رد التاريخ على هيوم .

على أننا برغم هذه الاعتراضات التافهة نعود إلى الأقرار بما اتسم به ذهن هيوم النفاذ من رهافة بتارة . لقد كان هو وحدة « التنوير » للجزر البريطانية ، ونحن إذا استثنينا مجال الرؤية السياسية ، وجدنا أن أثر هيوم أساساً كان في بريطانيا معادلاً لأثر نيف وعشرة فلاسفة في فرنسا . ومع أنه كان يشعر بالتأثير الفرنسي شعوراً عميقاً ، فإنه توصل إلى أفكار التنوير ، وكال بعض لطماته البالغة الشدة قبل أن يجرد « الفلاسفة » - بل فولتير - مخالبتهم على « العار » ' l'infâme ' . لقد كانوا مدينين له بقدر دينه لهم . كتب إليه ديدرو يقول : « انى أحبيك ، انى أحبك ، انى أجلك » (١٥٤) . وفي انجلترا أنهى مذهب الربوبية بتحديه قدرة العقل على الدفاع حتى عن أبسط مقومات الايمان الدينى ، وحمل الحرب لا إلى أسوار العقيدة القديمة فحسب ، بل إلى

قلعته الحصينة . وكان جبون سليل هيوم فى الفلسفة ، وتلميذ الذى بزغ فى التاريخ . وفى ألمانيا أيقظ كتابه « تحقيق فى الفهم البشرى » كانط من « سياته الدجماطيقى » بما بدا من تقويضه لكل العلم والميتافيزيقا واللاهوت عن طريق تشككه فى موضوعية العلة . وبعد أن قرأ كانط مخطوطة الترجمة التى قام بها هامان لكتاب « الحوارات حول الدين الطبيعى » أدمج فى اعداده النهائى لكتابه « نقد العقل الخالص » (١٧٨١) انتقادات هيوم للحجة القائمة على القصد ، واعتبر هذه الانتقادات مستعصية على الرد (١٥٥) .

وقد كتب هيوم يقول « أتمنى أن يكون حظى - لأجلى ولأجل أصدقائى جميعا - أن أقف دون عتبة الشيخوخة فلا أوغسل فى ذلك الأقليم الكئيب (١٥٦) . واستجاب له الحظ . تقول ترجمته الذاتية :

« فى ربيع ١٧٧٥ أصبت باضطراب فى أمعائى لم يفزعنى لأول وهلة ، ولكنه أصبح بعد ذلك ، كما خشيت ، قتالا لا شفاء منه . وانى الآن أعلق أملى على الانحلال السريع . لقد عانيت ألما طفيفا جدا من اضطرابى هذا ، وأعجب من ذلك أننى برغم التدهور الشديد الذى ألم ببدنى ، لم أعان قط ولو للحظة واحدة أى هبوط فى معنويتى ، بحيث لو طلب الى أن أسمى فترة حياتى التى أوثر أن أعيشها من جديد فربما أغربت بأن أسمى هذه الفترة الأخيرة . فعندى الحماسة ذاتها التى ألفتها فى الدرس ، والمرح فى صحبة الاخوان ، ثم اننى أحسب أن الرجل اذا مات وهو فى الخامسة والستين انما يوفر على نفسه بضع سنين من العلل والاسقام (١٥٧) » .

واثتمر عليه الاسهال ، ذلك الانتقام الأثير لذى الآلهة من عظماء البشر ، مع النزيف الداخلى ، فهبطا بوزنه سبعين رطلا فى عام واحد (١٧٧٥) . وكتب الى الكونتيسة بوفليه يقول « انى أرى الموت يدنو شيئا فشيئا دون أن أشعر بقلق أو أسى . أحبيك بكثير من الود والاحترام لآخر مرة (١٥٨) » وذهب للاستشفاء بالمياه المعدنية فى باث ، فلم تجد فتىلا فى التهاب المعى الغليظ المقرح المزمن . ولكن ذهنه ظل هائنا صافيا .

وعاد الى ادنبره فى ٤ يوليو واستعد للموت « بالسرعة التى يشتهيها أعدائى ان كان لى أعداء ، واليسر والبشاشة اللذين يتمناها لى أصدقائى (١٥٩) » فلما قرأ فى كتاب لوكان « حوارات الموتى » مختلف الأعذار التى تذرع بها المحتضرون لشارون حتى لا يستقلوا قربه من فورهم ليعبر بهم نهر الجحيم الى الأبدية ، لاحظ أنه لا يستطيع أن يجد عذرا يناسب حالته الا بانه قد يقول متوسلا « قليلا من الصبر - اى شارون الطيب . لقد كنت أحاول فتح عيون الجماهير . فلو عشت بضع سنين آخر لطبت نفسا بأن أرى سقوط بعض مذاهب الخرافة السائدة » . ولكن شارون أجاب « أيها الوغد المتكئ ، من يحدث هذا ولو بعد مئات السنين . أنتوهم أننى مانحك فسحة طوال هذه السنين ؟ فادخل الزورق ، اذن من فورك » .

أما بوزويل ، الملحاح الوقح ، فقد أصر على توجيه هذا السؤال الى الرجل المحتضر - أيؤمن الآن بحياة آخرة؟ وأجاب هيوم « انه لوهم غير معقول للغاية أن نعيش الى الأبد » . وثابر بوزويل على الحاحه قائلا « ولكن من المؤكد أن فكرة الحياة المستقبلية تسر النفس ؟ » وأجاب هيوم « أبدا ، انها فكرة كثيية جدا » . وأقربت النساء ورجونه أن يؤمن ، فصرفهن عن الموضوع بمزاحه (١٦١) .

ومات فى هدوء ، « بغير ألم كثير » (كما قال طبيبه) فى ٢٧ أغسطس ١٧٧٦ . ومشى فى جنازته جمع غفير برغم هطول المطر الغزير . وسمع صوت يقول « كان كافرا » ، وأجاب صوت آخر « لا يهم ، فلقد كان رجلا أميننا (١٦٢) » .